

فقه التنزيل النبوي لمقتضيات الاصلاح الاجتماعي أصوله القرآنية ومساراته التطبيقية

د. نادية المديوني

باحثة : جامعة وجدة- المملكة المغربية

تاريخ النشر: 2020 /10 /15	تاريخ القبول: 2020 /09 /30	تاريخ الاستلام: 2020 /09 /13
---------------------------	----------------------------	------------------------------

الملخص

إن أي مجتمع حضاري يحتاج إلى نظام يضبط حركة المجتمع أفرادا وجماعات، ويضعها في مساراتها الصحيحة حتى يحدث التوازن والتفاعل بين المؤسسات الاجتماعية الحيوية، فيحصل الإنتاج المطلوب الذي يؤدي إلى تنمية شاملة وتقدم أكيد في مضامير الحياة الاجتماعية كافة .

وإذا كنت سأركز هنا على دور العهد النبوي في إحداث الاصلاح الاجتماعي، فلأنه المنهج العملي الذي اقتدت به الأمة الاسلامية واتخذته منهاج حياتها في حالات تفوقها وازدهارها... هو العهد الذي نقل العرب من حياة البداوة والتمزق والضياع، إلى حياة المساواة والحركة الاجتماعية الواحدة، حركة صاغها صلى الله عليه وسلم في ظل عقيدته التوحيدية الخالصة وشريعته الرحيمة الخاتمة، كان بموجبهما قائد أعظم إصلاح اجتماعي حضاري عرفته البشرية في نواحي الحياة كلها، بحيث انتهى إلى بناء أمة إسلامية أدت دورها المشهود في القيام بوظيفة الاستخلاف والشهود الحضاريين في ظرف وجيز.

وسأحاول أن أقف عند وظيفة كل نظام -تأسس في العهد النبوي- في إحداث الاصلاح الاجتماعي المنشود والمحافظة على توازن الاجتماع البشري في عهده صلى الله عليه وسلم، من خلال المسارات التطبيقية

الكلمات المفتاحية:

الشريعة الاسلامية، الإصلاح الاجتماعي، التنزيل النبوي، الأصول القرآنية

تقديم:

لئن كانت معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبرى في القرآن الكريم، فإن المعجزة التاريخية لواقع العهد النبوي ذات دلالة قوية على أنه نبي مرسل، وإذ إن ما أرساه من أسس، وما سنه من نظم، في كتابة الرسائل، وعقد المعاهدات⁽¹⁾، وإنفاذ السفارات، وبعث الجيوش، ونظام القضاء، وتولية الولاة، وتنظيم موارد الدولة المالية، والعناية بالصناعات والحرف، وسائر ضروب المدنية التي تضبط أمور الناس، وترقي حياتهم، وتنهض بمستواهم، وتأخذ بيدهم إلى النهج الحضاري القويم، كل ذلك يقطع بأنه عليه الصلاة والسلام. وهو أمة نشأ بين أمة أمية. ما كان له أن يأتي بهذه التنظيمات المحكمة الدقة في إصلاح أحوال البشر، وترقية مداركهم، وضبط العلاقات بينهم وعمارة بلدانهم لولا أنه رسول من رب العالمين⁽²⁾. والمطلع على التنظيم في العهد النبوي (العهد المدني بالأخص) في مجالاته المتعددة، يجده بناءً محكما يتضمن علاقات إنسانية نموذجية تصل إلى حد التفاني في أداء العمل مع الإتقان، والجميع يسعى تحت سلطة ذات كفاءة وحزم وسداد إلى تحقيق "الهدف" بصدق وإخلاص⁽³⁾.

ولا شك أن السر في كفاءة هذا التنظيم ونجاحه يرجع أساسا إلى أثر جوانب العقيدة في التنظيم، فالحافظ العقدي يزكي الشعور الديني والوازع الأخلاقي للذين يحثان على الإخلاص في العمل، كما يثير ويحفز الجهاز الرقابي داخل الإنسان (أي الضمير)، فيقوم بدوره في دفع العمل إلى درجة الإتقان⁽⁴⁾. وسأحاول أن أقف عند وظيفة كل نظام -تأسس في العهد النبوي- في إحداث الإصلاح الاجتماعي والمحافظة على توازن الاجتماع البشري على عهده صلى الله عليه وسلم، من خلال المسارات التالية:

المسار الأول: التنظيمات التربوية والتعليمية النبوية أساس النهوض الاجتماعي

وأنا أتأمل المسألة التعليمية في العهد النبوي، انتهيت إلى مسألة مهمة، هي أن المسألة التعليمية الراشدة هي أساس أي إصلاح اجتماعي. فكلما كانت هذه القاعدة متينة، كان البنيان الاجتماعي أقوى وأشد. وبحكم وظيفتي المهنية في التعليم العمومي، فقد سمحت لنفسني أن أطيل الحديث قليلا في هذا المسار باعتباره المنصة التي ستؤسس عليها سائر المسارات التي سأحدث عنها لاحقا.

الفرع الأول: في ضرورة فقه الاعداد والتأهيل

¹ - انظر متن الصحيفة دستور المدينة في (الوثائق السياسية في العهد النبوي) محمد حميد الله.

² - النظام القضائي في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة: مناع القطان، ندوة النظم الإسلامية، أبوظبي، صفر 1405هـ/1984، ج 1، ص 364 (بتصرف).

³ - التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية: فرناس البنا، ندوة النظم الإسلامية، ج 1، ص 179.

⁴ - نفسه، ج 1، ص 189.

إن نظام التربية والتعليم ضرورة لتوجيه الأفراد وصياغتهم صياغة اجتماعية منضبطة ملتزمة ليكونوا لبنات صالحة في بناء المجتمع القوي المنتج، لذلك سارع المربي الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صياغة مبادئ وضوابط عامة للتربية والتعليم، تنبثق أساساً من القرآن الكريم، والعلم الحق المقرون بالعمل، بل إنه قد سعى إلى الاشراف بنفسه على إعداد وتربية وتعليم المعلمين، وقد مرت هذه الخطوة الأساسية في بناء صرح الإصلاح الاجتماعي عبر مرحلتين وهما:

المرحلة الأولى: المدرسة الأرقمية⁽¹⁾، مدرسة إعداد وتأهيل

وهي مرحلة إعداد وتربية المعلمين قبل الخدمة على يد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ إن المرحلة المكينة كلها تكون تطبيقاً لمتطلبات هذه المرحلة، خاصة في الفترة الأولى من الدعوة الإسلامية التي تميزت باتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مقراً للدعوة، وفي الوقت نفسه تكون مركزاً للإعداد وتأهيل المتعلمين ليمارسوا دورهم التعليمي والتربوي في نشر العلم والمعرفة في شتى أرجاء المعمورة، بعد تخرجهم واكتمال تعليمهم في هذه المدرسة الأرقمية الإسلامية الأولى.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤدي دور المعلم في هذه المرحلة، بينما يؤدي أصحابه رضوان الله عليهم أدوار التلاميذ، حيث كانوا يتعلمون منه القرآن الكريم وأصول الدين ومبادئه، ويتشربون ما يؤهلهم لأداء رسالتهم الحضارية المرتقبة.

ونجد بعض النماذج المتميزة من تلاميذ هذه المدرسة، الذين لم يقتصرُوا على التلقي فحسب في هذه المرحلة، بل بدؤوا يمارسون مهام تعليمية خارج الدار كنوع من التربية العملية، والاستعداد المبكر لممارسة عملية التعليم، وذلك استجابة لحاجة الدعوة ومتطلبات المرحلة، التي تقتضي توصيل رسالة القرآن إلى كل بيت، فكان الصحابة ممن رسخت أقدامهم في الإسلام، وتلقوا نصيباً أوفر من التعليم يزورون مثل هذه البيوت سرا، ويعقدون مع أهلها حلقات تعليم القرآن على نحو ما كان يفعل خباب بن الارت، الذي ضبطه عمر بن الخطاب في بيت أخته فاطمة وزوجها وهو يقرئهما القرآن⁽²⁾.

ومن النماذج المبكرة التي مارست التعليم في هذه المرحلة: مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي بعثه النبي إلى المدينة بعد أن بايع الأنصار البيعة الأولى، ليعلمهم القرآن ويدعوهم إلى توحيد الله، وكان يدعى المقرئ⁽³⁾.

لكن برغم وجود هذه النماذج، فإن السمة العامة لهذه المرحلة كانت سمة إعداد وتأهيل، وأن دور الصحابة فيها تركز على جانب التلقي والأخذ من رسول الله، وإذا كان لهم نشاط آخر، فهو في مجال الدعوة

¹ - لمزيد من التفصيل في هذا المفهوم يمكن الرجوع لمؤلفات د. فريد الأنصاري رحمه الله، مثل التوحيد والوساطة في التربية الإسلامية، ومجالس القرآن... (منشورات دار السلام، القاهرة).

² - والقصة مشهورة في إسلام عمر رضي الله عنه. انظر: "السيرة النبوية": ابن هشام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ط1/ 1411هـ، دار الجيل، بيروت، ج1، ص343.

³ - معرفة الصحابة: الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، طبعة 1419هـ. دار الوطن/ الرياض، ج18 ص5.

إلى الإسلام والدخول فيه، أما دورهم في التعليم والإقراء، فهو دور محدود، ولذلك نقول: إن هذه المرحلة تمثل (مرحلة التأهيل ما قبل الخدمة).

المرحلة الثانية: مرحلة الإشراف على المعلمين وتأهيلهم أثناء الخدمة

بوصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، دخلت الدعوة الإسلامية في طور جديدة، فقد أسفرت الهجرة عن قيام الدولة الإسلامية الأولى، وظهرت ظروف جديدة ومهام عديدة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام اقتضتها هذه النقلة الحضارية الكبيرة ومتطلبات الاجتماع البشري الجديد في إطار الدولة الجديدة.

فقد أصبحت الدولة الإسلامية معنية بشؤون الجهاد، وإصلاح المجتمع المسلم، وتحقيق الاكتفاء الذاتي والتعامل مع المواطنين غير المسلمين والعلاقات مع الدول والإمارات المجاورة والبعيدة، وتبليغها رسالة الإسلام، كل هذه الأعباء أضيفت إلى الأعباء الدعوية والتربوية والعلمية التي كان يتحملها النبي صلى الله عليه وسلم حين كان يربي أصحابه ويهيئهم في مكة.

ومن هنا فقد تميزت هذه المرحلة بأن مهمة التعليم فيها لم تقتصر على النبي صلى الله عليه وسلم وحده، بل اشترك معه أو ناب عنه في أدائها كبار أصحابه من خريجي دار الأرقم، أو السابقين إلى الإسلام من أهل المدينة، ولذلك تمثل هذه المرحلة مرحلة الممارسة الفعلية لوظيفة الإشراف التربوي التعليمي من قبل النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه الذين بدؤوا يمارسون التعليم للداخلين الجدد في الإسلام. ولعل مصعب بن عمير من خلال الدور الذي أداه، والذي أشرنا إليه فيما سبق، مثل نموذجاً للرعيل الأول من المعلمين الأوائل الذين أعدهم النبي وتشرفوا بممارسة التعليم والتدريس تحت إشرافه وتوجيهه صلى الله عليه وسلم.

وقد تزايدت أعداد المعلمين في هذه المرحلة، وتعددت مهامهم، وتنوعت مواقعهم، فهناك معلمون مبعوثون إلى الأقاليم النائية كاليمن والبوادي وغيرها، وهناك معلمون في داخل المسجد النبوي الشريف، وهناك معلمون داخل البيوت، ونحو ذلك، وكلهم يخضعون للإشراف والتوجيه من قبل النبي صلى الله عليه وسلم، ويتلقون منه الإرشاد والتصويب في متابعة متكاملة للعملية التعليمية التربوية بجميع عناصرها. ومما يدل على ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من بعض حججه، فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين: إحداهما يقرؤون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كل على خير: هؤلاء يقرؤون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون، وإنما بعثت معلماً"، فجلس معهم⁽¹⁾.

¹ - سنن ابن ماجه، باب (فضل العلماء والحث على طلب العلم). حديث رقم 229

الفرع الثاني: في تألق الفقه النبوي في الاشراف التربوي الباني

لقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بالجانب السلوكي لدى المعلمين من أصحابه، سواء الذين كانوا مقيمين عنده، ليعلموا الوافدين من المدينة والمهتدين الجدد إلى الإسلام، أو الذين كان ينتدبهم لتعليم الناس في الأقاليم والمناطق النائية عن المدينة.

ومن الأمثلة على ذلك، قصة تعامله مع الأعرابي الذي بال في المسجد، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: "بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه مه! قال: قال رسول الله: "لا تُزْرِمُوهُ"⁽¹⁾ دَعَوْهُ " فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله دعاه فقال له: "إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القدر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن"، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فأمر رجلا من القوم، فجاء بدلو من ماء فَشَتَّه عليه"⁽²⁾

وجاء في رواية للبخاري: فقام فقال لهم رسول الله: "دعوه وأهرقوا على بوله ذنوبا من ماء أو سجلا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين"⁽³⁾. كما جاء في رواية أخرى: "احفروا مكانه واطرحوا عليه دلواً من الماء، علموا ويسروا ولا تعسروا"⁽⁴⁾

ففي هذه القصة نجد مظاهر متعددة من الممارسات الإشرافية، تهدف إلى تعديل سلوك المعلمين وتحسين العملية التعليمية بعنصرها: المعلم والمتعلم، حيث نبه النبي الكريم أصحابه إلى وجه الخطأ في تصرفهم مع هذا الأعرابي الجاهل، الذي هو بحاجة إلى التعليم، لا إلى التعنيف، ولذلك ذكر العلماء من الفوائد المترتبة على هذا الحديث: "الرفق بالجاهل، وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف ولا إيذاء، إذا لم يأت بالمخالفة استخفافاً أو عناداً، وفيه: دفع أعظم الضررين باحتمال أخفهما لقوله صلى الله عليه وسلم (دعوه). قال العلماء: كان قوله صلى الله عليه وسلم: (دعوه) لمصلحتين: إحداهما: أنه لو قطع عليه بوله تضرر، وأصل التنجيس قد حصل، فكان احتمال زيادته أولى من إيقاع الضرر به، والثانية: أن التنجيس قد حصل في جزء يسير من المسجد، فلو أقاموه في أثناء بوله، لتنجست ثيابه وبدنه وموضع كثيرة من المسجد"⁽⁵⁾، ثم أرسى النبي صلى الله عليه وسلم قواعد الأسلوب الأمثل لتعامل المعلمين مع هذه الحالات من خلال بيانه النظري: "علموا ويسروا ولا تعسروا" و"فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين" ولم يكتف بهذا البيان النظري، بل أتبعه بتطبيق عملي حين دعا الأعرابي وعلمه آداب المسجد، وأحكام الطهارة ونحو ذلك، فكان حديثه تعليماً للأعرابي (التلميذ) وتدريباً للصحابة (المعلمين).

¹ - لا تزرموه: لا تقطعوا بوله.

² - صحيح مسلم، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المساجد، حديث رقم 429.

³ - صحيح البخاري، باب قول النبي: يسروا ولا تعسروا، حديث رقم 5663،

⁴ - مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مكتبة مراد ملا، الأستانة، تركيا، ج1/424. حديث رقم 1659

⁵ - شرح صحيح مسلم: النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2/1392هـ، ج1/458.

الفرع الثالث: من هديه صلى الله عليه وسلم في الاختيار والتوجيه والتقويم

أما إشرافه صلى الله عليه وسلم على المعلمين المبعوثين إلى الأماكن البعيدة فيتمثل فيما يلي:

1) اختيار المعلمين الأكفاء:

ويتجلى ذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "جاء ناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: أن ابعث معنا رجالا يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلا من الأنصار، يقال لهم القراء، يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون، فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء"⁽¹⁾. وهذا الحديث يكشف لنا عن جانب تربوي مهم، لم تظن له المدارس التربوية، إلا في وقت متأخر جدا، مع أنه عنصر فعال في التربية الإسلامية، وهو الوظيفة الاجتماعية للمعلم، بأن يكون له مساهمة إيجابية في تقديم الخدمات الاجتماعية، وربط المدرسة بكل مكوناتها بالبيئة الاجتماعية المحلية، وهذا ما نجده بوضوح كامل في وصف هؤلاء المعلمين بأنهم: بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون، فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء، ولا يتحقق هذا التفاعل الاجتماعي الرائع إلا بممارسة إشرافية متكاملة حضي بها هؤلاء المعلمون على يد مشرفهم ومربيهم الأول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

2) تزويد المعلمين بالنصائح والتعليمات:

ومن الأمثلة على ذلك، ما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي بعثه ومعازا إلى اليمن فقال لهما: بشرا ويسرا وعلما ولا تنفرا. وأراه قال: وتطاوعا"⁽²⁾

ففي هذا الحديث نجده صلى الله عليه وسلم يزود هذين المعلمين بنصائح مفيدة، بعضها يتعلق بأسلوب التعامل مع التلاميذ المتعلمين (التعليم والتبشير والتيسير وعدم التنفير)، ونصائح تتعلق بتعاملهما فيما بينهما بأن يتطاوعا، وذلك بتحقيق الاحترام المتبادل بينهما، وهذا له أثر كبير في نجاح العملية التعليمية، خاصة في تلك الظروف التي كان فيها ارتباط وثيق بين انتشار الإسلام ونجاح العملية التعليمية.

3) تشجيع المعلمين ورفع روحهم المعنوية:

إذا كان علماء التربية يوصون المشرفين بضرورة تشجيع المعلم، ورفع روحه المعنوية، وتعزيز نفسه بنفسه، فإن نبينا عليه الصلاة والسلام كان أسبقهم إلى مراعاة هذا الجانب الروحي وتطبيقه على أرض الواقع، كما يتضح لنا في الحديث التالي:

عن أنس أن أهل اليمن قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: ابعث معنا رجالا يعلمنا السنة والإسلام. قال فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة»⁽³⁾، فهذه العبارة التي وصف بها النبي مبعوثه أبا عبيدة، كانت لتحقيق هدفين تربويين، أولهما: رفع الروح المعنوية للمعلم (أبي عبيدة) وتعزيز ثقته

¹ - صحيح مسلم ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، حديث رقم 677.

² - صحيح مسلم، باب بيان أن كل مسكر خمر، حديث رقم 1733.

³ - صحيح مسلم، باب فضل أبي عبيدة بن الجراح، حديث رقم 6406.

بنفسه، وإشعار بثقة القيادة فيه، حتى يسعى للمحافظة على هذه الثقة، ويكون عند حسن الظن. والهدف الثاني: إعلام التلاميذ (أهل اليمن) بعظم مكانة هذا المعلم ومنزله عند نبي الإسلام، حتى يحرصوا على الاستفادة منه، ويعاملوه بما يستحقه من تقدير واحترام.

4) عقد اللقاءات مع المعلمين والتعرف على إنجازاتهم:

ومن الأمثلة على ذلك: لقاء النبي عليه الصلاة والسلام مع مصعب بن عمير في بيعة العقبة الثانية بعد عام من بعثته إلى المدينة، حيث كان برفقته اثنان وسبعون رجلا وامرأتان من اللذين أسلموا وتعلموا على يده، فكان ذلك تقريرا عمليا رفعه هذا المعلم المتميز إلى مشرفه العظيم صلوات الله وسلامه عليه. وقد يحدث بعد هذه اللقاءات، إذا حقق الصحابي (المعلم) نجاحا في مهمته، أن يعيد النبي بعثته إلى مكان آخر ليقدم لأهله ما يحتاجون إليه من تعليم وإرشاد وتثقيف، كما في حالة معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على مكة عاما، فتحها مع عتاب بن أسيد (الوالي عليها) ليُعلم أهلها، فجاء معاذ بعد أداء مهمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فكان معه في غزوة تبوك، ثم بعثه النبي عليه الصلاة والسلام إلى اليمن بعد ذلك.

5) التعرف على القدرة العلمية للمعلمين:

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي آية في كتاب الله أعظم؟ قلت: آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: 253) قال: فدفعت في صدري ثم قال: والله ليَهْنِكُ العلمُ أبا المنذر⁽¹⁾، فسؤال النبي عليه الصلاة والسلام هذا الصحابي، ليس سؤالا من أستاذ لتلميذ فحسب، وإنما هو سؤال مشرف لمعلم، نظرا للمكانة العلمية التي كان يتمتع بها هذا الصحابي أبي بن كعب، باعتباره أحد القراء المعدودين الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكونه أحد كتاب الوحي، وتولى مهمة الإفتاء والتعليم في حياته عليه الصلاة والسلام.

6) متابعة المعلمين وتربيتهم روحيا وإيمانيا:

من مظاهر العملية الإشرافية التي كان النبي (يؤدبها اتجاه أصحابه صلى الله عليه وسلم المعلمين) عنايته بترفيه حسهم الإيماني، وتعميق جانب الإخلاص لله تعالى وابتغاء رضوانه فيما يقومون به من مهام التعليم والتدريس، ولذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام حريصا أشد الحرص على ترسيخ عنصر الإخلاص ومراقبة الله تعالى في نفوس أصحابه، وعدم ترك النزاعات تتسلل إلى نفوسهم وتسيطر عليهم، ولذلك نجده عليه الصلاة والسلام ينهى أصحابه عن أخذ أجر مادي في مقابل ما يقومون به من تعليم للقرآن الكريم، ليبقى عملهم خالصا لوجه الله تعالى، ويجدوا ثوابه عنده كاملا يوم القيامة.

¹ - الضعفاء للعقيلي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعي، دار المكتبة العلمية - بيروت، ط 1، 1404هـ - 1984م، 2/212

وفي ذلك يروي عبادة بن الصامت رضي الله عنه قائلا: علمت ناسا من أصل الصفة الكتاب والقرآن، فأهدى إلي رجل منهم قوسا، فقلت: ليست بمال وأرمي عنها في سبيل الله عز وجل، لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا سأله، فأتيته، فقلت: يا رسول الله، رجل أهدى إلي قوسا ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن وليست بمال وأرمي عنها في سبيل الله، فقال: "إن كنت تحب أن تطوق طوقا من نار، فاقبلها"⁽¹⁾ وقد كان هذا الحديث مثار جدل واسع بين العلماء حول حكم أخذ الأجرة على التعليم، حيث ذهب بعضهم إلى ظاهره، فأروا أن أخذ الأجرة على تعليم القرآن غير مباح، وإليه ذهب الزهري وأبو حنيفة وإسحاق بن راهويه، وقال طائفة: لا بأس به ما لم يشترط، هو قول حسن البصري والشعبي وابن سيرين، وأباح ذلك آخرون وهو مذهب عطاء ومالك والشافعي⁽²⁾.

إن هذا التوجيه النبوي الكريم يمنع الصحابي المعلم من أخذ هدية في مقابل قيامه بواجب التعليم، إنما هو نابع من الفلسفة العامة التي كان يسير عليها المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت، والمتمثلة في تقديم الهدف الأخروي على الهدف الدنيوي في جميع الحركات والسكنات، وهذا يتسق مع طبيعة الإشراف التربوي في مفهومه الحديث، حيث يستمد الإشراف فلسفته من فلسفة وأهداف المجتمع الذي يمارسه، فهو تعبير عن حياة المجتمع، والمثل السائدة فيه.

الفرع الرابع: هديه صلى الله عليه وسلم في إرساء ضوابط العملية التعليمية

ومن هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلقين العلم وتعليمه ما كان يجري تحت سمعه وبصره من وسائل وطرق، تعتبر من أسمى المعالم وأرجى الضوابط في التربية التعليمية، نكتفي بذكر أهمها وهي كالاتي:

1) نشر العلم وعدم احتكاره:

لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: 67)، ولقوله عليه السلام: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"⁽³⁾

قال الحافظ بن حجر شارحا: لا شك أن الجامع بين تعلم القرآن كمثل نفسه ولغيره بين النفع القاصر والنفع المتعدي ولهذا كان أفضل⁽⁴⁾.

2) العالم القدوة:

¹ سنن أبي داود، باب في كسب العلم، حديث رقم 2964

² عون المعبود، شرح سنن أبي داود، ج 7/404.

³ رواه البخاري، حديث رقم 5027.

⁴ فتح الباري، عن آداب طالب العلم، ج 9 ص 76-96.

فمن كلام عمر بن العاص إلى ملك عمان: "لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول أخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وإنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يهجر، أي لا يقول الكلام القبيح، وأنه يفيء بالعهد وينجز الوعد، وأشهد أنه نبي"⁽¹⁾.

(3) التدرج في التعليم:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"⁽²⁾.

(4) الاعتدال في العلم والبعد عن الإملال:

فقد كان عليه السلام يتخول صحابته بالموعظة والعلم كي لا ينفروا ومخافة السأمة عليهم في الحديث.

(5) مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين:

فقد كان عليه الصلاة والسلام يخاطب كل واحد بقدر فهمه، وبما يلائم منزلته، وكان يحافظ على قلوب المبتدئين، وكان يجيب كل سائل عن سؤاله بما يهمله ويناسب حاله، ويوصي كل مستوص بما يعالج حاله، فمرة يوصي السائل بتقوى الله، وأخرى بعدم الغضب، ومرة بذكر الله أو الاستقامة، وكف اللسان عن النسيمة، ومثل هذا في السنة كثير.

(6) اعتماد الحوار والمساءلة والموازنة العقلية:

كما في حديث المفلس⁽³⁾ وحديث جبريل⁽⁴⁾ عن مراتب الإسلام وحديث الشاب الذي أتى رسول الله يستأذنه في الزنا⁽⁵⁾.

¹ - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، دار الجيل - بيروت، ط/1412، حديث رقم 1298. فكان أن صار هذا الملك صحابيا جليلا. أنظر: الرسول المعلم: عبد الفتاح أبو غدة، ص66

² - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم 1801.

³ - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "هل تدرون من المفلس؟"، قالوا: المفلس فينا، يا رسول الله، من لا درهم له ولا متاع. قال: "إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة، ويأتي قد شتم عرض هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، فيقعد، فيقص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن نفيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه من الخطايا، أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار" (رواه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، حديث رقم 8029).

⁴ - قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في محاورته مع جبريل:- «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدق. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (رواه مسلم، باب معرفة الإسلام والإيمان...، حديث رقم 102).

⁵ - إن فتى شاباً أتى النبي فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا له: مه مه! فقال له: ((اذنه))، فدنا منه قريباً، قال: ((أتحبه لأملك؟)) قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لأمهاتهم)). قال: ((أفتحبه لابنتك؟)) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: ((ولا الناس يحبونه لبناتهم)). قال: ((أفتحبه لأختك؟)) قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ((ولا الناس يحبونه لأخواتهم)). قال: ((أفتحبه لعمتك؟)) قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ((ولا الناس يحبونه لخالاتهم)). قال: ((أفتحبه لخالتك؟)) قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ((ولا الناس يحبونه لخالاتهم)). قال: فوضع يده عليه، وقال: ((اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه))، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء (سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، ج1، رقم الحديث: 370).

7) التعليم بالتشبيه وضرب بالأمثال:

كتشبيهه صلى الله عليه وسلم للمؤمن بالأتربة⁽¹⁾ ولنفسه بالغيث والمنافق بالشاة الحائرة بين غنمين، لا تدري أيهما تتبع، إضافة إلى حديث السفينة المعروف، والذي سنقف عند بعد قليل.

8) توجيه المتعلمين إلى تعلم اللغات:

عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود، وقال إني والله ما آمن يهود على كتابي، قال: فما مَرَّ نصف شهر حتى تعلمته له، قال: تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليهم قرأت له كتابهم⁽²⁾

الفرع الخامس: هديه صلى الله عليه وسلم في منهجية التعليم

اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم أساليب مختلفة في تلقين العلم وتعليمه، تعتبر معالم هادية للمعلم في تدريسه وللفقيه في فتواه، وهي عند علماء التربية اليوم (ديداكتيك المواد) أي تقنيات وطرق تدريسيها. ومن ذلك:

- تعليمه صلى الله عليه وسلم بالرسم على الأرض والتراب، وجمعه بين القول والإشارة في التعليم، وتعليمه برفع المنهي عنه بيده تأكيداً لحرمة، وابتدأه بالإفادة دون سؤال من الصحابة الكرام، وجوابه بأكثر مما سأل عنه رعاية لحاجته، ولفته السائل إلى غير ما سأل عنه لحكمة بالغة، واستعادته السؤال من السائل لإيفاء بيان الحكم، وتفويضه الصحابي بالجواب عما سئل عنه ليدرجه، وامتحانه بشيء من العلم ليقابله بالثناء عليه إذا أصاب، وتعليمه بالسكوت والإقرار على ما حدث أمامه، وانتهازه المناسبات العارضة في التعليم، وتعليمه بالممازحة والمداعبة، وإمساكه بيد المخاطب أو بمنكبه لإثارة انتباهه، وإبهامه لحمل السامع الكشف عنه للترغيب فيه أو الزجر عنه، مثلاً قوله: "يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة"⁽³⁾، وإجماله صلى الله عليه وسلم الأمر ثم تفصيله ليكون أوضح وأمكن في الحفظ والفهم، وتعليمه بالوعظ والتذكير والترغيب والترهيب والقصص وأخبار الماضين، واكتفاؤه بالتعريض والإشارة في تعليم ما يستحي منه⁽⁴⁾.

الفرع السادس: معالم أسس التعليم النبوي

¹ - عن أنس عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرَجَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ). (رواه البخاري، حديث رقم 5427)

² - رواه الترمذي في سننه، كتاب الاستئذان والأدب، باب في تعلم السريانية. حديث رقم 2715

³ - رواه الامام أحمد في مسنده، مسند أنس بن مالك، حديث رقم 12697.

⁴ - العلم في العهد النبوي: معالم وضوابط، طارق سويدان، ص 9. بتصرف.

فهذه بعض التنظيمات الإشرافية التربوية التعليمية التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يمارسها على المعلمين من أصحابه، بهدف الارتقاء بمستوياتهم العلمية وتحسين أساليبهم التعليمية، وتعديل معاملاتهم السلوكية وتربيتهم تربية إسلامية تقوم على أسس يمكن أن تلخص على الوجه الآتي:

■ تربية تكاملية شاملة للروح والعقل "إن لبدنك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا، فأعط لكل ذي حق حقه"⁽¹⁾.

■ تربية متوازنة تجمع بين حظي الدنيا والآخرة. يقول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: 77).

■ تربية عملية سلوكية تهنيء الإنسان العملي الذي يلتزم بنظام واقعي في الأخلاق والسلوك.

■ تربية فردية على الفضائل وجماعية على التعاون. يقول الرسول الكريم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى"⁽²⁾، ولعمري هذا من دعائم الإصلاح الاجتماعي.

■ تربية لضمير الفرد ليكون رقيبا على السلوك والأفعال. يقول الرسول الكريم: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"⁽³⁾.

■ تربية الفطرة وإعلاء لها ووضعها على خط الاعتدال، بحيث لا إفراط ولا تفريط. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"⁽⁴⁾.

■ توجيه الإنسان نحو تحقيق الخير والعدل لنفسه ولأسرته ولمجتمعه وللإنسانية جميعا. قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: 104).

■ التربية النبوية تربية مستمرة لا تقف عند حد معين، ومنافذها متنوعة في البيت والمجتمع والمدرسة والمسجد.

■ وتربية أصيلة ومعاصرة مفتوحة على الأساليب الحسنة كلها في التوجيه والتعديل "الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها"⁽⁵⁾.

¹ - (إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ). البخاري، حديث رقم 1968

² - رواه مسلم، باب (تراحم المؤمنين) حديث رقم 6751.

³ - سنن الترمذي، باب (معاشرة الناس)، حديث رقم 1987. وقال: حسن صحيح.

⁴ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَيْهَمَةِ تُلْتَجُّ الْبَيْهَمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ) رواه البخاري، حديث رقم 1385..

⁵ - التربية الإسلامية: أصولها وتطورها في البلاد العربية: محمد منير مرسى، ط1 1981 القاهرة، ص 38 وما بعدها.

■ وتربية إنسانية عالمية، لا تعرف الحدود ولا تعرف الطائفية ولا العنصرية البغيضة، وإنما هي في خدمة الإنسان أينما كان، تعمل لخيره وتبذر بذور المحبة بين أبنائه، أي أن رسول الإسلام يربي المؤمنين به على الاجتماع البشري العام.

وهذا مفترق الطريق بين التربية الغربية والتربية الإسلامية، لأن الأولى في أعلى مستوياتها تقوم على الإخلاص للوطن لا للإنسان، بدليل أن الإنسان الغربي يُربي على عدم السرقة والنهب والغصب والكذب والغش. بينما في خارج بلده في المستعمرات مثلاً: هو مثال الأناية البغيضة والجشع الكريه والغش والكذب والدسيسة والغصب والسلب والنهب وإيثار صالح القوم والوطن على كل القيم الرفيعة⁽¹⁾.

الفرع السابع: معالم أهداف التعليم النبوي

إن أسس التربية الإسلامية النبوية السابقة الذكر وضعت لتحقيق أهدافا عديدة منها:

● تربية الإنسان تربية ربانية شاملة، عن طريق صياغته صياغة إيمانية في حدود سلوكه الجماعي الإنساني الفطري، كي يندمج في حياة عملية ونظيفة توجهها الاستقامة. وإذا وصل الإنسان إلى التحقق بالتربية الإسلامية سينتهي إلى درجة التخلق بالتقوى، وهي طريق العلم الحق الذي ينور حياته ويوصله بحركة الوجود الذي حوله. وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: 281).

● صناعة العقل المدرك للتمييز بين الأشياء من أجل الإبداع في المهمة التي وكل بها وهي الخلافة في الأرض، ولذلك مدح القرآن الكريم العقل وأمر الإنسان باستعماله، للوصول إلى التفكير السديد، وربط السبب بالمسبب، تمهيدا للكشف عن حقائق الوجود. وما أكثر ما نجد في القرآن الكريم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: 13) و﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: 12) و﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء: 28) و﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: 2).

ومن المعلوم أن الإنسان الذي يفكر بعقله المنطقي يرفض الخرافة واللاسيبية في الوجود. وهذا المنهج التربوي بحد ذاته يربي عقلية علمية تستطيع قيادة حركة الإصلاح الاجتماعي.

● إيصال الإنسان إلى أعلى درجة ممكنة من الكمال وذلك: أولا بتربية الفرد الصالح في ذاته من النواحي الانفعالية والروحية والاجتماعية والعقلية والجسمية، وثانيا بتربية المواطن الصالح للمجتمع الإنساني الكبير، ليصبح قادرا على الإصلاح الاجتماعي والانساني معا.

¹ - منهج التربية الإسلامية: محمد قطب . ط، دار الشروق . بيروت . ص 40 ،

• توجيه الفطرة الإنسانية في إطارها الذي وضعه الله تعالى لها، حتى تتحرك في داخله حركة متوازنة دون إفراط أو تفريط، لأن خروج الفطرة من مسارها الصحيح إفساد للجبلية الإنسانية وانحراف بها عن الغاية الأساس التي خلقت من أجلها، وكل انحراف لا بد أن يؤدي إلى انحرافات أخرى وبذلك يفسد الفرد وتفسد معه الحياة الاجتماعية⁽¹⁾.

فالتربية الإسلامية النبوية في مراحلها كلها تحاول المحافظة على الفطرة الإنسانية، منذ الطفولة إلى أن يتحصن الإنسان بتقوى الله سبحانه وتعالى. وهكذا يمتزج الأفراد بعضهم ببعض، ليشكلوا في النهاية الأمة التي قال سبحانه وتعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (آل عمران: 110) وقال: (وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنار بكم فاعبدون) (الأنبياء: 92)

ومجمل القول: إن الباحث المنصف إذا درس تنظيمات ومبادئ التربية النبوية، وصل إلى أنها بمجموعها تشكل منهجا متكاملًا في التربية والتعليم، وأن لها أهدافًا وأسسًا واضحة تنطلق من أصول الإسلام العامة وقواعده وشريعته التي جاء بها رسول الإسلام، التي توقف الإنسان في حدود إنسانيته⁽²⁾.

وهذا التنظيم التربوي النبوي المحكم هو الذي تفتقده المناهج التربوية المعاصرة التي تهتم بالجانب العقلي والجسمي دون الالتفات إلى الجانب السلوكي والروحي، ذلك أن صلى الله عليه وسلم النمو الروحي للفرد حاجة أصيلة في أي إنسان، ويخطئ علماء النفس إذ يعتبرون أن أبعاد النمو أربعة وهي: النمو الانفعالي والاجتماعي والعقلي والجسمي، فالحاجة إلى النمو الروحي أقوى من الحاجة إلى أي نوع من أنواع النمو الأخرى⁽³⁾.

وهذا هو جوهر القضية التربوية الذي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"⁽⁴⁾.

المسار الثاني: الوظيفة الإصلاحية للتنظيمات الاجتماعية النبوية

من المسلمات المعروفة في علم الاجتماع أن المجتمع البشري لا بد أن يستند في تنظيمه وتسييره إلى نظرية حضارية أو قاعدة حضارية مستخلصة من تاريخ الأمة وتطورها، نابعة من حاجاتها، متفقة مع أعرافها وخصائصها، مستفيدة من تجارب الإنسانية كلها، كي توحد بين أبنائها وتدفعهم إلى التفاهم المشترك والتعاون في بناء الحياة وال عمران.

ولم يكن الإسلام بدعا عندما وجه إلى إقامة مجتمعه على أساس القاعدة الإيمانية التي تجمع بين المسلمين دون الالتفات إلى الفوارق البشرية والبيئية المتنوعة، مما أدى إلى توجيه المجتمع نحو الوحدة

¹ - التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة: إسحق أحمد الفرحان، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط1/1982م، بتصرف

² - الإسلام والتنمية الاجتماعية للدكتور محسن عبد الحميد ص 133-138 بتصرف.

³ - التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة "ص34/33.

⁴ - رواه البخاري، باب من استبرأ لدينه، حديث رقم 52.

العقيدية والاجتماعية، ذات الخصائص الأخلاقية التي تحافظ على المجتمع الإنساني من أن يتحول إلى مجتمع التمزق والصراع والإلحاد والإباحية، أو ينتهي به التطور غير الموجه إلى مجتمع الغاب الذي يفقد فيه الإنسان القدرة على الحفاظ على حقوقه وسماته آدميته المكرمة عند الله تعالى⁽¹⁾.

ولذلك كانت خطوة الرسول الأولى بعد الهجرة إرساء قواعد بناء المجتمع القوي الموحد، الذي تتحقق فيه العدالة المطلقة مهما كلف الأمر.

ومن أجل ذلك، كان من أولويات الرسول صلى الله عليه وسلم في مجال التنظيم: اهتمامه بالتنظيم الاجتماعي داخل الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة، وذلك حتى يتحقق الترابط الاجتماعي، والعدالة المطلقة، والتعاون بين المسلمين، فقام بالمؤاخاة بين أصحابه المهاجرين والأنصار.

وفي هذا الشأن يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: "قد حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قريش والأنصار في داري"⁽²⁾.

وروي من حديث الزبير رضي الله عنه قال: أنزل الله فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (الأنفال: 76)، وذلك أننا معشر قريش لما قدمنا المدينة ولا مال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم ووارثناهم، فأخى أبو بكر خارجة بن زيد، وأخى عمر فلانا، وأخى عثمان بن عفان رجلاً من بني زريق بن سعد ... وأخيت أنا كعب بن مالك، فجنثته فابتعلته، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى موارثنا"⁽³⁾.

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: (ولكل جعلنا موالياً) قال: ورثة، (والذين عقدت أيمانكم) قال: كان المهاجرون لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم، فلما نزلت (ولكل جعلنا موالياً) نُسخت. ثم قال: (والذين عقدت أيمانكم) إلا النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصى له⁽⁴⁾.

ولقد ترتبت على هذا التشريع حقوق خاصة بين المتآخين لتنظيم العلاقة بينهم، وهي علاقة ليست محدودة بل مطلقة، تشمل كل أوجه التنسيق والعون المادي والمعنوي.

فهي تأكيد للارتقاء بالرابطة الإيمانية فوق جميع الروابط الأخرى بما فيها النسب، ليتحقق في واقع الحياة العملي، المعنى الذي يسعى إليه هذا الدين وهو:

- انصهار المسلمين في كتلة اجتماعي واحد بتعاون أفرادهم لخلق الإحساس بالاندماج في الشخصية الجماعية.

¹ - الإسلام والتنمية الاجتماعية، محسن عبد الحميد، ص 71. بتصرف

² - أخرجه مسلم في صحيحه، حديث رقم 2529

³ - تفسير ابن كثير، دار الفكر، طبعة 1414هـ/1994م، ج 3/567.

⁴ - أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، باب قوله تعالى (والذين عقدت أيمانكم). حديث رقم 2292

- توحيد الاتجاه نحو الهدف الواحد، وذلك عن طريق توحيد الإحساس الاجتماعي بين أفراد المجتمع.

- تحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع الواحد خاصة أن المهاجرين قد تركوا أموالهم وديارهم في مكة.

- تعويض المهاجرين عاطفياً عن انقطاع ذويمهم عنهم، إذ سيجد كل فرد منهم أخاً في الله أبرّ وأرحم به من أخيه في الرحم⁽¹⁾.

ولقد نظم النبي صلى الله عليه وسلم العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك صحيفة أوردتها المصادر⁽²⁾، واستهدفت هذه الصحيفة أو الوثيقة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات.

وترجع أهمية هذه الوثيقة إلى اعتبارين:

أولهما: ما لها من أهمية خاصة في فهم طبيعة الدولة الإسلامية الأولى، وكيف أدار النبي صلى الله عليه وسلم شؤون الاجتماع الإسلامي في المدينة رغم التعدد الديني والطائفي الموجود. ثانيهما: القدوة المستفادة من سياسة النبي وفائدتها البالغة في تنظيم أي دولة معاصرة على أساس إسلامي.

والراجع: أن الوثيقة في الأصل وثيقتان جمع المؤرخون بينهما، إحداهما تتناول موادعة الرسول لليهود، والثانية تنظم علاقة المسلمين بعضهم ببعض وتحدد واجباتهم وحقوقهم⁽³⁾.

وتتضمن وثيقة موادعة اليهود البنود رقم (24) إلى رقم (47)، ولم تحصر المواطنة في الدولة الإسلامية في المسلمين وحدهم، بل نصّت على اعتبار اليهود المقيمين في المدينة من مواطني الدولة، وحددت ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات، تضمن ذلك البنود من رقم (25) إلى رقم (36)⁽⁴⁾.

ويبدل بندها الأول رقم (24) على التزام اليهود بدفع قسط من نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة⁽⁵⁾: "وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين"⁽⁶⁾.

وتناولت البنود من رقم (25) إلى الرقم (35) تحديد العلاقة مع المهوديين من الأوس والخزرج، وقد نسبتهم البنود إلى عشائرتهم العربية، وأقرت حلفهم مع المسلمين⁽¹⁾: "وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين"⁽²⁾.

¹ - التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية. فرناس البنا، وقائع ندوة النظم الإسلامية، ط/1984م، ج1/215. بتصرف.

² - طرق رواية الوثيقة في: السيرة الصحيحة لأكرم العمري، ج1 ص272. وانظر كذلك الدراسة الوافية التي نشرها الدكتور محمد عمارة في العدد الأول من مجلة التسامح العماني ع:1/2003، تحت عنوان: سماحة الإسلام.

³ - السيرة النبوية الصحيحة. أكرم العمري ج1 ص285/276. بتصرف.

⁴ - النظام السياسي للدولة الإسلامية: محمد سليم العوا. ص54.

⁵ - السيرة الصحيحة: أكرم العمري، ج1 ص286.

⁶ - السيرة: ابن هشام ج1 ص221.

وكفلت المادة رقم (25) لليهود حريتهم الدينية⁽³⁾: "لليهود دينهم"⁽⁴⁾ وللمسلمين دينهم"، كما حددت مسؤولية الجرائم وحصرتها في مرتكبيها⁽⁵⁾: (إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ⁽⁶⁾ إلا نفسه وأهل بيته)⁽⁷⁾. والمجرم يناله العقاب وإن كان من المتعاهدين، جاء ذلك في البند رقم (47)⁽⁸⁾.

وقد منع البند رقم (43) اليهود من إجارة قريش أو نصرها: صلى الله عليه وسلم وإنه لا تجار قريش (ولا من نصرها)⁽⁹⁾، وكان النبي يستهدف من هذا التعرض لتجارة قريش التي تمرُّ غربي المدينة في طريقها إلى الشام، فلا بد من أخذ هذا التعهد لئلا تؤدي إجارتهم لتجارة قريش إلى الخلاف بينهم وبين المسلمين⁽¹⁰⁾.

كما منع البند رقم (36) اليهود من الخروج من المدينة إلا بعد استئذان الرسول. وهذا القيد على تحركاتهم ربما يستهدف كذلك منعهم من القيام بنشاط عسكري كالمشاركة في حروب القبائل خارج المدينة، مما يؤثر على أمن المدينة الاقتصادي وسلمها الاجتماعي، واليهود بصفتهم مواطنين في الدولة الإسلامية يجب أن يخضعوا لنظامها العام⁽¹¹⁾.

تضمنت الوثيقة النبوية مبدأ العقوبة في المادة (37): (وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم)⁽¹²⁾، وهو مبدأ جديد في ذلك الوقت الذي كانت العقوبة في صورة الانتقام من الجاني لا تقف فيه عند حد في نيلها من أقارب الجاني وأوليائه.

كما تؤكد على واحدة من أهم وظائف الدولة وسلطاتها، وهي وظيفة إقرار القانون والنظام، أو ما يطلق عليه (بالسلم المدني)، وما كان لدولة أن تستحق هذا الاسم ما لم يكن قانونها محترماً فوق أرضها، وقضاؤها عادلاً في تقرير الحقوق لأصحابها⁽¹³⁾.

كما أن المعاهدة امتدت بموجب البند (45) لتشمل حلفاء المسلمين وحلفاء اليهود من القبائل الأخرى، إذ شرطت مادة هذا البند على كل طرف مصالحة حلفاء الطرف الآخر، لكن المسلمين استثنوا قريشا (إلا من حارب الدين)⁽¹⁾، لأنهم كانوا في حالة حرب معهم⁽²⁾.

¹ - السيرة الصحيحة: أكرم العمري ج 1 ص 290.

² - السيرة: ابن هشام، ج 2 ص 121.

³ - السيرة الصحيحة: أكرم العمري ج 1 ص 290.

⁴ - السيرة: ابن هشام ج 2 ص 121.

⁵ - السيرة الصحيحة: أكرم العمري ج 1 ص 290.

⁶ - وتغ الرجل إذا أهلك: ابن منصور: اللسان ج 3 ص 874.

⁷ - السيرة: ابن هشام ج 2 ص 121.

⁸ - الوثائق السياسية في العهد النبوي محمد حميد الله، ص 62.

⁹ - السيرة: ابن هشام ج 2 ص 123.

¹⁰ - السيرة الصحيحة: أكرم العمري ج 1 ص 290.

¹¹ - نفسه ج 1 ص 291.

¹² - السيرة: ابن هشام ج 2 ص 122.

¹³ - صحيفة المدينة، وقائع ندوة النظم الإسلامية: انظر محمد سليم العوا، ج 1 ص 68.

كما اعتبرت منطقة المدينة حرماً آمناً بموجب البند (39): (وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة)⁽³⁾، أي لا يقتل صيدها، ولا يقطع شجرها. وبذلك أجلت هذه المادة الأمن داخل المدينة ومنعت الحروب الداخلية⁽⁴⁾.

أما الوثيقة التي كُتبت بين المهاجرين والأنصار، فشملت البنود من رقم (1) إلى رقم (33)⁽⁵⁾. وتبدأ المادة رقم (1): ببيان الأطراف المعنية بتنظيم العلاقة فيما بينها، فهي (بين المؤمنين و المسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم). ويقرر البند رقم (2): (أنهم أمة واحدة من دون الناس)⁽⁶⁾. وبذلك أحلت الوثيقة الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية؛ فعبرت عن المسلمين بأنهم أمة من دون الناس.

فيجعل هذا النص من المسلمين أمة تتحد أفكارها ومشاعرها في ظل رابطة العقيدة دون النظر إلى أصولهم القبلية والعرقية، وهي ظاهرة يعرفها المجتمع العربي لأول مرة في تاريخه، فلم ينتظم فيها الناس قبل الإسلام إلا على أساس من صلات القرابة والنسب⁽⁷⁾.

وذكرت البنود من رقم (3) إلى الرقم (11) الكيانات العشائرية، واعتبرت المهاجرين كتلة واحدة لقلّة عددهم. أما الأنصار فنسبتهم إلى عشائرتهم للاستفادة منها في التكافل الاجتماعي، فالإسلام جعل العقيدة هي الأصل الأول الذي يربط بين أتباعه، لكنه اعترف بارتباطات أخرى تندرج تحت رابطة العقيدة وتخدم المجتمع، وتسهم في بناء التكافل الاجتماعي بين أبنائه، مثل: الارتباطات الخاصة بين أفراد الأسرة الواحدة وما يترتب عليها من حقوق وواجبات على الآباء والأبناء والأمهات، والارتباطات الخاصة بين أفراد العشيرة الواحدة، وما يلزمهم من حقوق وواجبات، كالتضامن في دفع الديات، وفكك الأسير، وإعانة المحتاج منهم، وما يترتب على أفراد المحلة الواحدة من حقوق وواجبات⁽⁸⁾؛ وقد شدد الإسلام على حقوق الجار كما جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"⁽⁹⁾. وكذلك أبناء المدينة الواحدة، فلا تخرج زكاة أموالهم عن محيطهم إلا بعد استيفاء حاجات

¹ - السيرة: ابن هشام ج 2 ص 123.

² - السيرة الصحيحة: أكرم العمري ج 1 ص 291-292.

³ - السيرة: ابن هشام ج 2 ص 22.

⁴ - السيرة: أكرم العمري ج 1 ص 292.

⁵ - الوثائق السياسية للعهد النبوي: محمد حميد الله، ص 60/59.

⁶ - السيرة الصحيحة: أكرم العمري ج 1 ص 291.

⁷ - النظام السياسي للدولة الإسلامية. محمد سليم العوا، ص 54.

⁸ - السيرة الصحيحة: أكرم العمري ج 1 ص 293.

⁹ - أخرجه البخاري في الجامع الصحيح كتاب الآداب، باب الوصاة بالجار.

أبنائها؛ فقد روي عن طاووس قال: "كان في كتاب معاذ: من خرج من مخلاف إلى مخلاف؛ فإن صدقته وعشره في مخلاف عشيرته"⁽¹⁾.

وهكذا رتب الإسلام على العشائر القيام بمهام التكافل الاجتماعي لسدّ ثغرات كبيرة في المجتمع، وما تبقى من حاجيات في مجال الضمان الاجتماعي تقوم الدولة بتأمينها⁽²⁾.

كما أكدت الوثيقة في البند رقم (13) على المسؤولية الجماعية: "وإن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة⁽³⁾ ظلم، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو ولو كان ولد أحدهم"⁽⁴⁾؛ فاعتبرت هذه المادة سائر المؤمنين مسؤولين عن تحقيق العدل والأمن والنظام في مجتمع المدينة.

ولأن الحدود على الجرائم مصدرها الله تعالى؛ فإنّ السعي إلى تطبيقها واجب ديني على كافة المؤمنين، مما يكسب الأحكام قدسية ويعطيها قوة، ويمنع ما ينشأ في نفوس بعض الناس من الرغبة في تحديها والخروج عليها، كما هو الحال في ظل القوانين الوضعية⁽⁵⁾.

وفي ختام بنود الوثيقة المتعلقة بالمهاجرين والأنصار، ينص البند رقم (23) على أن النبي صلى الله عليه وسلم هو المرجع الوحيد في كل خلاف يقع بين المسلمين في المدينة؛ مما يعني أنه صلى الله عليه وسلم هو الضابط والمنظم للعلاقات الاجتماعية في الدولة الناشئة⁽⁶⁾.

التنظيم العشائري: وظائفه ومزاياه

ومن أهم النظم التي أوجدها النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة: تنظيم القبائل العربية اجتماعياً. وقد قامت تلك التنظيمات في أساسها على القبيلة باعتبارها وحدة اجتماعية فعّالة في النشاط العام. ويقصد من عملية التنظيم العشائري: توزيع المهام والمسؤوليات على العشائر وتوحيّ عدة أعمال ووظائف اجتماعية؛ لإشراك أفراد المجتمع في المسؤولية وتربيتهم على الشعور بها، وتعويدهم على الاضطلاع بأعبائها، وترسيخ مبدأ المسؤولية الجماعية التي تعد ركناً أساسياً، في أي إصلاح اجتماعي مرتقب.

ومن أهم وظائف التنظيم العشائري:

¹ - معرفة السنن والآثار: أبو بكر البيهقي، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، 185/5

² - السيرة الصحيحة: أكرم العمري ج 1 ص 294.

³ - (اِبْتَغَى دَسِيعَةً ظَلَمَ): أي طَلَبَ دَفْعاً على سبيل الظلم فأضافه إليه وهي إضافة بمعنى من. ويجوز أن يُراد بالدَّسِيعَةِ العَطِيَّة: أي اِبْتَغَى منهم أن يدفَعوا إليه عَطِيَّة على وجه ظلمهم: أي كونهم مظلومين أو أضافها إلى ظلمه لأنه سبب دَفْعِهِم لها (النهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السعادات الجزري، المكتبة العلمية - بيروت، ط/ 1979م، 266/2)

⁴ - السيرة: ابن هشام ج 2 ص 120-121.

⁵ - السيرة الصحيحة: أكرم العمري ج 1 ص 295.

⁶ السيرة الصحيحة ج 1 ص 29

- الحفاظ على انتماءات العشائر وأنسائها، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم"⁽¹⁾.

والتعرف على طبائع القبائل وأحوال أهلها؛ فقد روي أن صعصعة بن ناجية المجاشعي رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "كيف علمك بمضرب؟" قال: يا رسول الله! أنا أعلم الناس بهم؛ تميم هامتها وكاهلها الشديد الذي يوثق به ويُحمل عليه، وكنانة وجهها الذي فيه السمع والبصر، وقيس فرسانها ونجومها، وأسد لسانها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "صدق"⁽²⁾.

- توحيد الزعامات والقيادات: إذ كان صلى الله عليه وسلم يوّلي على العشيرة⁽³⁾؛ مما يوحي بالاعتقاد أنه أراد بذلك تحديد المسؤوليات وحصرها في وحدات صغيرة لتسهيل معرفة أحوال القبائل وسائر شؤونها العامة والخاصة، علاوة على أن تعدد الزعامات يخلق روح المنافسة المشروعة بين العشائر، لاستباق صالح الأعمال والخيرات التي يعد نفعها. بلا ريب. على المجتمع كله⁽⁴⁾.

ولهذا الغرض، كان على كل عشيرة في المدينة سيد وهو دون رئيس أو زعيم القبيلة؛ تختاره العشيرة من قبل نفسها أو يعينه الرسول صلى الله عليه وسلم.

فقد ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل بني سلمة من الأنصار: "من سيدكم؟ فقالوا: جدُّ بن قيس على أنا نبخله، فقال عليه الصلاة والسلام: "وأبي داءٍ أدوى من البخل؟! بل سيدكم عمرو بن الجموح"⁽⁵⁾.

وقد تطلب وجود المهام المتنوعة المناطة بالعشيرة ضرورة وجود العريف الذي تُوكل إليه مهمة رئاسة العشيرة لضمان تلك المهام.

وكان من مزايا التنظيم العشائري أيضا: أن باستطاعة السلطة أو الدولة أن تعرف جميع أفراد العشيرة وتتصل بهم عن طريق عريفهم. وقد استُغلت تلك الميزة في دعوة القبائل إلى الإسلام؛ حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكتب لواحد من أبناء العشيرة. حين يقدم عليه بإسلامه. يؤمّره على قومه⁽⁶⁾، وقد أسلم على أيدي أولئك الأمراء كثير من البطون والعشائر⁽⁷⁾.

¹ - صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج 1، ص 477.

² - السيرة: ابن هشام ج 1 ص 559.

³ - ابن هشام: السيرة، ج 1، ص 559.

⁴ - مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم: عبد الله عبد العزيز بن إدريس، ص 122.

⁵ - صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص 125، رقم الحديث 227.

⁶ - التاريخ الكبير للبخاري، ج 2 ص 277.

⁷ - الإصابة لابن حجر، ج 1، ص 265، 424/بتصرف.

وكان المسجد يلعب دورا رئيسيا في توجيه حياة القبائل؛ حيث كان لكل بطن أو عشيرة مسجد ينسب إليها⁽¹⁾، تؤدي فيه شعائر دينها⁽²⁾ ويجتمع فيه الناس لتدارس مسائل العلم⁽³⁾.
ويعدُّ أمر جباية الصدقة وشؤون المعاقلة⁽⁴⁾ والديات من أجل الوظائف الاجتماعية للتنظيم العشائري؛ فالعشيرة هي المسئولة عن جباية صدقتها، وذلك عن طريق استعمال أحد أبنائها على ذلك⁽⁵⁾.
وفي هذا الأمر كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحزيمة بن عاصم بن قطن العُكلي حين ولَّاه على صدقات قومه، يذكِّره ألا يظلم أو يضيِّم أحدا بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى حزيمة بن عاصم: إني بعثتك ساعيا على قومك فلا ييضاموا ولا يُظلموا"⁽⁶⁾.
كما بعث عدي بن حاتم الطائي على صدقات قومه⁽⁷⁾، وكتب عليه الصلاة والسلام، كتابا لوائل بن حجر الحضرمي لما أراد الشخصوخ إلى بلاده جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المهاجر بن أبي أمية: إن وائلا يستسعى ويترفَّل على الأقيال⁽⁸⁾، حيث كانوا من حضرموت"⁽⁹⁾.
ويبدو أن استعمال أحد أبناء القبيلة يعد أمرا مفيدا لها ولبيت مال المسلمين؛ إذ أن الساعي في هذه الحالة يُفترض فيه معرفته لكل فرد في العشيرة، مما يبعد إمكانية وقوع الحيف والظلم على الفقراء، أو محاباة الأغنياء وذلك لانتفاء عامل الجهل؛ لأن كل قوم أدري بأنفسهم⁽¹⁰⁾.
كما أن القبيلة ملزمة عرفا برعاية أفرادها وتأمين حد الكفاية لهم متأسية بحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام: "ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته"⁽¹¹⁾. وقد ذُكر أن طلحة بن عبد الله كان لا يدع أحداً من قبيلته تميم عائلا إلا كفاه مؤنته ومؤنة عياله، وزوج أيامهم، وأخدم عائلهم، وقضى دين غارمهم⁽¹²⁾.

¹ - عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التي أضمرت من الحيفاء، وأمدتها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضم من الثنية إلى مسجد بني زريق.... "البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلاة، باب هل يقال: مسجد بني فلان، ج 1، ص 108، .
² - عن جابر قال: كان معاذ يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم يأتي قومه فيصلي بهم. البخاري كتاب الأذان، باب إذا صلى ثم أم قوما.
³ - جامع بيان العلم: ابن عبد البر، ج 2، ص 8.
⁴ - مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله: أن العاقلة هم أهل ديوان القتال إن كان القتال من أهل ديوان، وأهل الديوان أهل الرايات، وهم الجيش الذين كتبت أسماءهم في الديوان لمناصرة بعضهم بعضا، تؤخذ الدية من عطاياهم (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت: 1393هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ط 1995 م، 111/3)
⁵ - الطبقات لابن سعد، ج 2، ص 106.
⁶ - الإصابة لابن حجر: ج 1، ص 427/426.
⁷ - السيرة لابن هشام: ج 4، ص 271.
⁸ - مفرده: قيل، وهو الملك. انظر اللسان لابن منظور: ج 3، ص 203.
⁹ - الفائق في غريب الحديث للزمخشري، ج 1، ص 14، .
¹⁰ - مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، عبد الله ابن إدريس، ص 192.
¹¹ - أخرجه البخاري في جامعه الصحيح، كتاب الأحكام باب قول الله تعالى: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول".
¹² - الطبقات لابن سعد: ج 8، ص 221.

وبهذا الأسلوب رتّب الإسلام على الوحدات الاجتماعية الصغيرة تنظيم مهام التكافل الاجتماعي، على أن إقرار الروابط العشائرية قُصد به الاستفادة منها اجتماعيا؛ وبذلك حوّل الإسلام وجهة الروابط القبلية، واستفاد منها بتكليفها وفق أهدافه العليا.

وبصفة عامة، ظهرت أهمية النظام الاجتماعي الجديد في تأسيس علاقات اجتماعية جديدة وفريدة، تقوم على روح الأمة بدل القبيلة، والأخوة بدل الطبقة، والشرع بدل العرف، والعالمية بدل العصبية الإقليمية؛ وهي مقاييس أسست منظومة اجتماعية متكاملة ضمنت تكريس قيم سياسية اجتماعية رفيعة وهي: العدل، والمساواة، والشورى، والحرية⁽¹⁾.

وخلاصة القول: إن الدراسة الواعية للنظام الاجتماعي النبوي تجعلنا أمام حقيقة ساطعة وهي: أن المجتمع الإسلامي ليس مجتمعا مغلقا بل هو مجتمع مفتوح، لا يقيم الإسلام فيه العلاقات الاجتماعية العامة على أساس التعصب العنصري أو الطائفي أو الديني المغلق، وينطلق المجتمع الإسلامي في ذلك من أن الناس كلهم عيال الله وأنهم سواء أمام الله، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح، وأن المسلمين وغيرهم متساوون في حقوقهم وواجباتهم أمام الشريعة.

وبناء على ذلك، فإن رسول الإسلام دعا إلى تكافؤ الفرص للجميع، ولا يعيق أي إنسان في مجتمعه من أن يقوم بالعمل الصالح في ذاته، والعمل الصالح هذا يتولد من تفجير الطاقات الإنسانية. ولن تكون لهذه الميزة قيمة في الإنسان إذا لم تعطى الفرصة الكاملة المتساوية للجميع كي يتنافسوا تنافسا شريفا في إطار اجتماع إنساني منضبط ومسؤول.

ومن المعلوم أن الإسلام لا يجعل هذا التنافس أو السعي قاصرا على المسلمين، وإنما يدعو الأفراد الذين ينتمون إلى مجتمعه، مسلمين وغير مسلمين، إلى الاشتراك في بناء الحضارة الإنسانية، التي ينعم فيها الكل بالحرية والكرامة.

والحقائق التاريخية شاهدة على أن سمات المجتمع الإسلامي عبر التاريخ كانت سمات إنسانية. فلو راجعنا التاريخ الحضاري لأمتنا في العهد النبوي لوجدنا أن العناصر الإسلامية وغير الإسلامية اشتركت في عملية البناء الاجتماعي.

ومن أهم المبادئ التي جاء بها الإسلام رفعا لشأن المرأة اعترافه بإنسانيتها واستقلال شخصيتها وعدها أهلا للتدين والعبادة، وإقرار حق المبايعة لها كالرجل ودعوتها إلى المشاركة في النشاط الاجتماعي. وقد سمح لها بالأعمال التي تتفق مع طبيعتها، وشرع لها نصيبها في الميراث، وأشركها في إدارة شؤون الأسرة وتربية

¹ - راجع في هذه التنظيمات مثلا: منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة، محمد أمحزون، وخاصة الفصل الرابع: خصائص الفترة المدنية في مجال التنظيم: التنظيمات الاجتماعية، ط2/ 2003 . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، من ص 298 إلى

الأولاد، وأوجب معاملتها بالمعروف واحترام آدميتها، كما أنه ساوى بينهما وبين الرجال في الولاية على المال والعقود، وأقرّ لها شخصيتها القضائية المستقلة⁽¹⁾.

وإن دراسة سريعة لواقع المرأة في العهد النبوي الزاهر-بدءاً من نسائه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، بحيث كانت فمهن العاملة والصانعة والتاجرة والمحاربة والمربية والمالكة للغلمان والجواري والأراضي والمواشي، والمحافظة على الأمن- ستجعلنا نقر بأن المرأة أصبحت لبنة أساسية في البناء الاجتماعي الجديد مثلها في ذلك مثل أخيها الرجل.

المطلب /المسار الثالث: الوظيفة الاجتماعية للتنظيمات الإدارية والسياسية النبوية

بدأ التنظيم الإداري والسياسي في الدولة الإسلامية عقب وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة؛ حيث بنى مسجده الشريف. ولم تقتصر وظيفة المسجد على كونه مكاناً لأداء الصلاة فحسب، بل كان المسجد:

- مجمعا للشورى؛ يشاور فيه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وتتخذ فيه الإجراءات المختلفة⁽²⁾.
- مقرا للقيادة السياسية؛ تتخذ فيه القرارات الخطيرة، وتعد في الأولوية للقواد⁽³⁾.
- نزلا لاستقبال وفود القبائل ورسولهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽⁴⁾.
- محكمة للقضاء بين المتخاصمين بما أنزل الله عز وجل⁽⁵⁾.
- مركزا للإنعاش الاقتصادي؛ حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينشر المال الذي ورد من البحرين في المسجد⁽⁶⁾.

¹ - انظر في ذلك مثلاً: حقوق المرأة في الإسلام: محمد رشيد رضا. وحقوق المرأة في الإسلام: علي عبد الواحد وافي. والمرأة بين الفقه والقانون: مصطفى السباعي. وإسلام والمرأة المعاصرة: البيه الخولي. والمرأة بين التقاليد السائدة والوافدة: محمد الغزالي. وتحرير المرأة في عصر الرسالة: عبد الحليم أبوشقة ...

² - فعن عائشة في حديث طويل : قالت : "... فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ، وهو على المنبر فقال : " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ... " انظر البخاري الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب حديث الإفك.

³ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثاً وأمر عليهم أسامة بن زيد فطعن الناس في إمارته ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ، وإيم الله إن كان لخليقا للإمارة ... " انظر البخاري ، كتاب المغازي ، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد ، ومسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد.

⁴ - عن ابن عباس قال: قدم وفد عبد القيس فقالوا: يا رسول الله إن هذا الحي من ربيعة ... ، انظر البخاري كتاب فرض الخمس، باب أداء الخمس من الدين ، ومسلم: كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام.

⁵ - عن سهل أخي بني ساعدة أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : رأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقنته؟ فتلاعنا في المسجد وأنا شاهد . انظر البخاري : كتاب الأحكام ، باب من قضى ولاعن في المسجد.

⁶ - عن أنس رضي الله عنه قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين فقال: " انثروه في المسجد " . وكان أكثر مال أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه . انظر البخاري : كتاب الصلاة ، باب القسمة وتعليق القنو في المسجد (القنو: هو عذق التمر).

وفيه صُفَّة، وهي ظل في مؤخرة المسجد يأوي إليها المساكين والغرباء الذين لا منازل لهم⁽¹⁾. وكان في المسجد النبوي مجلس آخر عند أسطوانة أخرى، هي "أسطوانة القرعة" وقد عرف هذا المجلس بمجلس المهاجرين، واستمر وجوده حتى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجتمع فيه بالمهاجرين، ويحدثهم ويشاورهم في الشؤون العامة. وفي المسجد النبوي أيضا "أسطوانة الوفود" التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلقي عندها وفود القبائل والسفراء والمبعوثين، حيث تبحث العهود وأمور الجزية⁽²⁾، أو يتم تقديم الولاء والطاعة⁽³⁾، وما إلى ذلك من أمور الدولة.

وقد كان النظام يطبع أماكن الجلوس والاجتماع في المسجد؛ إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخذ مجلسه عند أسطوانة في المسجد تسمى "أسطوانة التوبة"⁽⁴⁾، وهي الأسطوانة التي ربط أبو لبابة رضي الله عنه نفسه بها، وصارت تنسب إليه⁽⁵⁾.

وكان الرجل إذا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وكان له عريف نزل عليه. وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصُفَّة⁽⁶⁾، وكان أبو هريرة رضي الله عنه عريف من سكن الصفة من القاطنين ومن نزلها من الطارقين. فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد دعوتهم إلى أبي هريرة فدعاهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتهم في العبادة والمجاهدة⁽⁷⁾.

وقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم اللبنة الأولى للتنظيم السياسي في الدولة الإسلامية فور وصوله إلى المدينة؛ حيث وضع دستور المدينة المتمثل في "الصحيفة" كما قلت سابقا؛ وهي توضح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة.

ومن ضمن بنودها في هذا السياق النص على عدة مواد منها:

المادة رقم (36): وهي تنص على أنه لا يخرج من المدينة أحد إلى بإذن محمد⁽⁸⁾.

كما نصت الفقرة (42) على: أن ما وقع من حدث أو شجار يُخاف فساده بين أهل الصحيفة، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾ وهي نصوص واضحة الدلالة في اعتراف اعتراف المتعاقدين في هذه الصحيفة بإدارة النبي صلى الله عليه وسلم للدولة الإسلامية.

¹ - عن نافع قال: "أخبرني عبد الله بن عمر أنه كان ينام وهو شاب أعزب لا أهل له في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم". انظر البخاري: كتاب الصلاة، باب نوم الرجال في المسجد،

² - انظر البخاري: الجامع الصحيح كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران.

³ - أحاديث الوفود في الجامع الصحيح للبخاري من كتاب المغازي.

⁴ - عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أنه كان إذا اعتكف طرح له فراشه، أو يوضع له سريره وراء أسطوانة التوبة" انظر ابن ماجه: السنن، رقم 1774،

⁵ - السيرة لابن هشام: ج 3، ص 255/256.

⁶ - عن طلحة قال: "أتيت المدينة وليس لي بها معرفة، فنزلت في الصفة مع رجل، فكان بيني وبينه كل يوم مد من تمر". انظر مسند الامام أحمد.

⁷ - الحلية: أبو نعيم، ج 1، ص 376/377

⁸ - السيرة لابن هشام، ج 2، ص 122.

وتقرر المادة (17): "إن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم" صلى الله عليه وسلم⁽²⁾، ويعني هذا أن مسؤولية إعلان الحرب والسلم لا يقررها الأفراد، بل المرجع فيها هو النبي صلى الله عليه وسلم، فبإعلانه الحرب يصبح سائر المسلمين تلقائياً في حالة حرب مع عدوهم، ولا يمكن لفرد منهم مهادنته؛ لأنه مرتبط بالسياسة العامة للمؤمنين.

كما أن عبء الحرب يقع على الجميع، ويلزمهم تناوب الخروج في السرايا والغزوات⁽³⁾. وتنص المادة رقم (1) والمادة رقم (16) على مبدأ الانضمام إلى المعاهدة بعد توقيعها.

ولعل وثيقة المدينة هي أول وثيقة في التاريخ تقرر مبدأ جواز الانضمام إلى المعاهدات بعد توقيعها؛ ذلك المبدأ الذي أصبح من مسلمات قواعد المعاهدات الدولية في العصر الحديث⁽⁴⁾؛ فقد نصت فقراتها الأولى على أن نصوصها منطبقة على أطرافها الأصليين، "ومن تبعهم فلحق بهم"، و"أنه من تبعنا من يهود فإنه له النصر والأسوة غير مظلومين"⁽⁵⁾.

ويقرر نص المادة (21 ب): "أنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن"⁽⁶⁾، مما يشير إلى أن المشركين من أهل المدينة دخلوا تحت حكم الدولة السياسي وخضعوا لأسس تنظيماتها الإدارية⁽⁷⁾.

وعلى أساس ذلك تكونت الدولة الجديدة، وأخذت تباشر مهامها التي شملت المجالات المختلفة: فأقامت العدل عن طريق القضاء، ونظمت الدفاع وسياسة الحروب في الغزوات التي باشرها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه أو بواسطة قواد سراياه، ونظمت موارد الدولة المالية بتنظيم الزكاة وطرق جبايتها، وعقدت المعاهدات مع الجماعات التي كانت محاربة لها أو التي اختارت طريق السلم إزاء دعوتها، وأنفذت السفارات إلى العالم الخارجي، فوضعت بذلك أساساً للعلاقات الدولية⁽⁸⁾.

وكانت جميع الأعمال والوظائف السياسية والإدارية محصورة في يد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ فوّض الله تعالى إليه إدارة أمور السياسة العامة في تدبير شؤون الأمة ورعاية مصالحها، وبعث الجيوش⁽⁹⁾،

¹ - نفسه، ج 2، ص 123.

² - نفسه ج 2، ص 121.

³ - السيرة الصحيحة. أكرم العمري: ج 1، ص 297.

⁴ - في النظام السياسي للدولة الإسلامية: محمد سليم العوا، ص 57/56.

⁵ - انظر: سيرة ابن هشام: ج 2، ص 121 وما بعدها.

⁶ - السيرة ابن هشام. ج 2 ص 121 - 129.

⁷ - في النظام السياسي للدولة الإسلامية: محمد سليم العوا، ص 54.

⁸ - نفسه: ص 59/58.

⁹ - انظر مثلاً: البخاري في الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة ذات السلاسل.

وقسم الغنائم⁽¹⁾، وعقد العهود⁽²⁾، وإبرام الصلح⁽³⁾، وتصريف الأموال، وتوزيع الإقطاعات⁽⁴⁾، وإقامة الحدود⁽⁵⁾، وتولية القضاة والولاة⁽⁶⁾، وغير ذلك من شؤون الإمامة العظمى⁽⁷⁾.

فكان له عليه الصلاة والسلام وظيفة: الرسول، والنبى، والحاكم، والقاضى، وقائد جيوش المسلمين . وعلى هذا النحو، اتسم أسلوب إدارة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمركزية، إلاَّ إنَّ هذا التركيز اقتضته عدة عوامل من بينها:

. ظروف نشأة الدولة الإسلامية، حيث كان نطاق الدولة لا يتعدى المدينة . فكان تركيز السلطات في يد واحدة أمراً طبيعياً نظراً لصغر حجم الدولة الناشئة . والشاهد على ذلك أن الدولة ستتحول تدريجياً مع توسعها وضمها مناطق جديدة إلى إدارة لا مركزية .

. إن السلطة التوجيهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لعمل الدولة وموظفيها لها طبيعة خاصة، فمدى الطاعة فيها يفوق طاعة المرؤوس لرئيسه، لأن الاعتبار هنا أقوى من الاعتبار القانوني الذي يوجب على المرؤوس طاعة رئيسه، فالأساس هنا هو التشريع الإلهي والأوامر الإلهية⁽⁸⁾: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ (الحشر: 7) . بل إن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۚ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝﴾ (النساء: 80).

ومنذ السنة التاسعة شرعت وفود القبائل العربية تأتي معلنة دخولها في الإسلام، حيث بدأت الدولة الإسلامية تتجه نحو تحقيق اللامركزية، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعين على كل قبيلة يأتيه وفدها مسلماً رجلاً منها، وغالباً ما يكون هو شيخها في الجاهلية مراعاة لتأليف قلوبهم على الإسلام .

¹ - عن أنس قال: اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين . انظر البخاري كتاب الجهاد، باب من قسم الغنيمة في غزوه وسفره.

² - عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل : الأكبر: من أجل قول الناس: الحج الأصغر . فنبت أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم مشرك ، انظر البخاري كتاب الجزية والموادعة ، باب كيف ينبذ إلى أهل العهد.

³ - عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: "صالح النبي صلى الله عليه وسلم المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء..." انظر البخاري كتاب الصلح ، باب الصلح مع المشركين.

⁴ - انظر مثلاً: الخراج لأبي يوسف: ص 61.

⁵ - البخاري: كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع.

⁶ - عن أبي بردة قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما على مخالف، قال: واليمن مخالفان، ثم قال: "يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا " فانطلق كل واحد منهما إلى عمله. انظر البخاري كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن.

⁷ - النظام القضائي في العهد النبوي: مناع القطان، ج 1 ، ص 347.

⁸ - التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية: فرناس البنا ؛ ج 1 ، ص 221.

وقد طبق عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ على أهل مَقنا، حيث ورد في معاهدة النبي صلى الله عليه وسلم معهم هذه العبارة: (وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم)⁽¹⁾.

ولما قبل أسيد بن العلاء بن الخضرمي رضي الله عنه إلى الدخول فيه، أقره النبي صلى الله عليه وسلم على قومه، وعيّن مندوبه الأقرع عاملاً للصدقة في المنطقة، فقد ورد في نص الكتاب الموجه إليه: "إلى أسيد بن عبد الله صاحب هجر: بسم الله الرحمن الرحيم، إنه قد جاءني الأقرع بكتابك وشفاعتك لقومك، وإني قد شفعتك، وصدقت رسولك الأقرع في قومك. . وأوصيك بأحسن الذي أنت عليه من الصلاة والزكاة وقراءة المؤمنين، وإني قد سميت قومك بني عبد الله فمرهم بالصلاة، وبأحسن العمل، وأبشر"⁽³⁾.

وحين أرسلت ثقيف وفدا عنها إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته من تبوك، أعلنوا إسلامهم، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص وهو منهم وأصغر سنا، لحرصه على تعلم القرآن الكريم والتفقه في الدين⁽⁴⁾.

وفي نطاق تشجيع اللامركزية أيضا، راعى النبي صلى الله عليه وسلم حين اتسعت رقعة الإسلام استخلاف أحد أصحابه إذا ما غاب عن المدينة، أو إذا فتح بلدا من البلدان، فاستخلف ابن أم مكتوم رضي الله عنه على المدينة؛ واستخلف على مكة بعد فتحها عتّاب بن أسيد رضي الله عنه، ووّل عمرو بن سعيد بن العاص على خيبر ووادي القرى وتيماء. . إلى غير ذلك⁽⁵⁾.

ومن هديه صلى الله عليه وسلم في عمّاله وولاته: أنه إذا وجه عاملا إلى جهة من الجهات عهد إليه- إما مشافهة أو كتابة⁽⁶⁾ - أن يأمر الناس بالصلاة، ويأخذ منهم زكاة أموالهم، وأن يعدل فيهم⁽⁷⁾، ويفقههم في الدين، ويعلمهم السنة، ويلين لهم في الحق، ويشد عليهم في الظلم⁽⁸⁾.

أما التقسيمات الإدارية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ضمّت عدة مدن وولايات، ومناطق للعشائر والقبائل، وكانت المدينة هي عاصمة الدولة ومركز الحكم، وكانت تخضع لسلطة الحكومة المركزية مباشرة.

¹ - الوثائق السياسية للعهد النبوي: محمد حميد الله، رقم 33، ص 120/119.

² - ورد كذا عند ابن حجر في الإصابة، ج 1/ ص 115.

³ - الطبقات. ابن سعد: ج 1/ ص 275.

⁴ - نفسه، ج 5/ ص 508.

⁵ - كتب السيرة زاخرة بالحديث عن هذا الموضوع.

⁶ - كما فعل عليه الصلاة والسلام مع معاذ بن جبل رضي الله عنه حين وجهه إلى اليمن؛ فقد أوصاه مشافهة، بينما كتب لعمرو بن حزم رضي الله عنه كتابا حين عينه حاكما باليمن؛ انظر: البخاري الصحيح، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن.

⁷ - البخاري: كتاب المغازي باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن. حيث قال لهما صلى الله عليه وسلم: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا".

⁸ - السيرة. ابن هشام ج 4، ص 265/262.

الرقابة الادارية النبوية: وإذا كانت الرقابة إحدى الدعائم الرئيسة التي يعتمد عليها التنظيم، فقد وضع النبي صلى الله عليه وسلم أساس الرقابة الإدارية على الحكام والولاة والعمال. وأخذت الرقابة النبوية صورة التوجيهات المسبقة قبل مباشرة المهام الموكلة إليهم لجعل الرقابة الإدارية الذاتية خط الدفاع الأول في مواجهة الانحراف الإداري في شتى مظاهره وصوره من خلال تربية ضمير المسلم، بحيث يصبح رقيباً على نفسه وحارساً على تعاليم الشريعة الإسلامية في كافة المجالات.

فقد روى ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؛ فالإمام الذي على الناس راع ومسئول عن رعيته"⁽¹⁾.

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة"⁽²⁾.

وأكد الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الرقابة الذاتية بقوله: "الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"⁽³⁾.

كما اهتم النظام الإسلامي في العهد المدني بالرقابة الإدارية التي يقوم بها الحاكم أو الإمام على رؤوسيه من العمال والولاة، ليتأكد من التزامهم بواجباتهم؛ فلا استغلال للسلطة، ولا إساءة لاستعمالها. ويدخل في هذا النطاق إلزام عامة الناس بتنفيذ القوانين واللوائح⁽⁴⁾؛ فشؤون الحكم لا تستقيم إلا بهذا النوع من الرقابة، وإهماله يؤدي إلى انحلال الدولة وانهارها.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يحاسب العمال، ويكشف عملهم؛ فإذا وجد تصرفاً فيه خلل حاسب عليه ونهى عنه؛ مثل ما رواه الإمام البخاري في باب محاسبة الإمام عماله، عن أبي حميد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل ابن اللتبية على صدقات بني سليم، فلما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاسبه قال: هذا الذي لكم، وهذه هدية أهديت لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فهلأ جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً؟!"، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد: فإني أستعمل رجلاً منكم على أمور مما ولاني الله فيأتي أحدكم فيقول: هذا لكم، وهذه هدية أهديت لي. فهلأ جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً؟! فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئاً. قال هشام: بغير حقه. إلا جاء الله يحمله يوم القيامة"⁽⁵⁾.

فهذه صورة من صور رقابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على عماله، تضمنت حكماً شرعياً وإدارياً، هو محاسبة العمال ومراقبتهم، وتحريم الهدايا الموجهة إليهم.

¹ - أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأحكام ، باب قول الله تعالى " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول".

² - أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ، باب من استرعى رعية فلم ينصح. ومسلم في كتاب الإيمان ، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.

³ - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان.

⁴ - التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية. فرناس البنا، ج 1، ص 191

⁵ - أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأحكام ، باب محاسبة الإمام عماله.

ومن الوسائل التنظيمية التي تساعد على مراعاة كل المعطيات، وتحديد مستوى الحركة واتجاهها: وسيلة الإحصاء؛ فهو ضرورة لتقدير أي موقف عسكري، كما أنه ضرورة لمعرفة الوضع الاقتصادي والسكاني.

وقد تناول أكثر من حديث طلب النبي صلى الله عليه وسلم إحصاء عدد المسلمين؛ فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اكتبوا. وفي رواية: احصوا. لي من تلفظ بالإسلام من الناس". فكتبنا له ألفاً وخمسمائة. وفي رواية: فوجدناهم خمسمائة. وفي رواية: ما بين ستمائة وسبعمائة⁽¹⁾.

وطريق الجمع بين هذه الروايات: أن العمليات الإحصائية تجري بين وقت وآخر بسبب المتغيرات أو الظروف الطارئة⁽²⁾.

وفي حديث آخر لابن عباس رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إني كتبت في غزوة كذا وكذا..."⁽³⁾؛ مما يدل على مشروعية وضع دواوين الجند لإحصاء المنخرطين في سلك الجندية، ولتمييز من يصلح للجندية ممن لا يصلح.

كما أن مراعاة النظام تقتضي إحصاء من يخرج للحرب وكتابة اسمه على سبيل التناوب؛ باستثناء النفير العام الذي يتعين فيه الخروج على كل أحد.

لذلك، فإن إنشاء الدواوين في أول عهدها يعود فضله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما ما قام به الخلفاء الراشدون من بعده؛ فكان في مجال التطوير والتوسيع الذي يتفق مع حاجات العصر ومتطلباته. أما كتابة الإنشاء، فقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم الكتاب لكتابة رسائله داخل الجزيرة العربية وخارجها⁽⁴⁾. وثبت أنه لما أراد أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لن يقرأوا كتابك إذا لم يكن مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة ونقشه: محمد رسول الله.

وهذا يدل على مرونة الإسلام في الإفادة من الأساليب والوسائل المعاصرة ما دامت لا تتعارض مع مبادئ الشريعة وروحها العامة⁽⁵⁾.

إذن إن النظام الإداري والسياسي النبوي الإسلامي قائم على أساس الشورى الملزمة، التي تأخذ بأراء الأكثرية في مجلس الشورى أو أهل الحل والعقد دفعا للخلاف ودرءاً لمفسدة الاستبداد والطغيان.

¹ - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب كتابة الإمام الناس. ومسلم: كتاب الإيمان، باب الاستسار بالإيمان للخائف.

² - السيرة النبوية: صالح الشامي، ص 228

³ - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير. باب كتابة الإمام الناس.

⁴ - عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهبي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، انظر البخاري: كتاب المغازي، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر.

⁵ - السيرة الصحيحة: أكرم العمري، ج 2/459..

وبذلك يعتمد هذا النظام على مشاركة الأمة في حمل أمانة الحكم واختيار ممثلها ورئيس دولتها الذي هو نائب عن الأمة . لا عن الله تعالى . في تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية وتنظيم أمور الإدارة والسياسة الحيوية وقيادة حركة المجتمع في مجالات الحياة كافة⁽¹⁾ .

وقولنا: هو نائب عن الأمة . لا عن الله تعالى . يبعد السياسة الإسلامية تماما عن "التيوقراطية"⁽²⁾ أو نظرية الحكم الإلهي الذي ساد تاريخ العالم القديم والوسيط.

ولكون الإمام أو الرئيس نائبا أو وكيلًا عن الأمة، فلها أن تعزله إذا خالف أحكام الشريعة أو طغى أو ابتدع في الدين أو خالف شروط النيابة أو الوكالة، لأن من يمتلك حق التولية يملك حق العزل⁽³⁾ .

ومن الحقائق المهمة عن الدولة الإسلامية، أنها دولة قانونية بكل ما تحتمل هذه الكلمة من المعاني الحديثة.

إن لها دستورا رصينا يعتمد على المصادر الشرعية من القرآن الكريم والسنة الشريفة والإجماع والقياس، وعلى المصادر التبعية الأصولية الأخرى التي هي وسيلتها في مواجهة لحياة المتغيرة، والاجتهاد المستمر لإيجاد الحلول المناسبة لقضاياها ومشاكلها، ولها أنظمة إدارية ورقابية قابلة للتطور والنماء لتحقيق المصالح العامة، وإحداث السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية محدد وواضح في الشريعة، ويمتاز النظام التشريعي السياسي الإسلامي بتحقيقه الحقوق والحريات العامة والشاملة لرعايا الدولة الإسلامية دون تفریق بين فرد أو آخر.

وجاءت هذه التشريعات إقرارا لأدمية الإنسان في المجتمع بدرجة كافية بحيث يشعر الإنسان في ظله بالأمن النفسي والاجتماعي حتى يستطيع أن يستغل طاقاته كلها من خلال حريته في مشاركته السياسية وخدمة المجتمع في سبيل رقيه الحضاري. والإنسان الذي يساق قسريا في المجتمع، وتهدر إنسانيته وتطمس معالم شخصية إنسان معطل القوى مزعزع الشخصية، قلق وخائف، ولن يستطيع أن يشترك بقوة وأمان في بناء شبكة علاقات اجتماعية قوية وسليمة، فقوة السياسة الاجتماعية وتماسكها وشورتها وتقدمها تتماسك طرديا مع إبراز كرامة الإنسان وتحقيق أدميته. ولا يمكن أن تتحقق كرامة الإنسان إلا من خلال مبادئ:

الأول: إقرار حريته، فلقد مر بنا أن القرآن الكريم قد جعل الإنسان مكلفا مسئولًا. وهذه المسؤولية لن تتحقق إلا من خلال حريته التي تتمثل في ذاته في الاختيار وإلا كيف يكون مسئولًا؟، وتتفرع من ذلك حريته في العقيدة والرأي وحريته في التملك وحريته في استخراج طاقاته الفطرية إلى حيز الوجود⁽¹⁾ .

¹ - انظر في ذلك: نظام الحكم في المغرب للدكتور محمد عبد الله العربي ط1/ القاهرة، ص64 ، والدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي للدكتور منير حميد البياتي، ط1/ بغداد 1979م، ص 106

² - التيوقراطية: عبارة عن كلمتين في اليونانية (ثيوه) معناه: ديني ، و(كرايتس) معناه: حكم. وهو الحكم القائم على التفويض الإلهي، أي أن الحاكم يختاره الله فيحكم باسمه ويستمد منه سلطته، يحيط به جمع من الكهنة يسيطرون على الناس ويستغلونهم . انظر: "القاموس السياسي" لأحمد عطية الله ، القاهرة . عام1968.

³ - الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي: منير حميد البياتي ص346.

وهذه الحرية ليست مطلقة، فحرية في الاعتقاد لا يجوز أن تتحول إلى إذابة للآخرين في عقائدهم. وحرية في التملك لا يجوز أن تكون مطلقة تلحق الضرر بأمالك الآخرين. وحرية في إبراز طاقته لا يجب أن تكون سلباً للطاقات الكامنة عند الآخرين.

الثاني: عدم استغلاله من حيث هو إنسان، لأن استغلاله من لدن إنسان آخر يعني قتل آدميته وتعطيل طاقاته. وبذلك يحدث ظلم كبير يلحق ضرراً بالغاً بالإنسان من حيث ذاته، والمجتمع من حيث استفادته من الطاقات المسلموبة، فينتقل المجتمع إلى مجتمع السيد والمسود، وهو المجتمع الظالم الذي رفضه القرآن الكريم والذي سماه مجتمع أهل الترف الذين يقفون دائماً أمام كل تغيير صالح⁽²⁾، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (سبأ: 34).

ولو تأملنا في ملامح المجتمع الإسلامي في العصور التاريخية الزاهرة، لرأينا أن اعتراف رسول الإسلام بحرية الإنسان العقيدية والفكرية كان له دور عظيم في التقدم الحضاري والتنمية الاجتماعية، بحيث استطاع كل فرد في المجتمع النبوي الإسلامي أن يؤدي دوره دون رقيب أو عائق مهما كان نوعه. فالتاريخ حركة الإنسان، وحركة الإنسان يتوزعها الحق والباطل والصواب والخطأ. وإن ملايين المخطوطات في شتى العلوم والفلسفات والأدب والفنون المنتشرة في مكتبات الشرق والغرب لدليل واضح على الإنجاز الحضاري الإسلامي الذي تم في ظل تشجيع رسول الإسلام لحركة العلم والحرية الفكرية⁽³⁾.

ولقد ترك الإسلام مساحة واسعة في تدبير شؤون الدنيا لحركة العقل المسلم. ففي كل عصر يمكن أن يتحقق ذلك الانتخاب بأفضل طريقة ممكنة عقلاً وواقعاً، لتحقيق المشاركة الفعلية في الحكم. وتاريخ الإسلام الراشد كله قائم على أساس المعارضة الصحيحة النزهة البناءة، ورسول الله فيما لم يكن فيه وحي، كان يتنازل عند الرأي الذي تصدره الأكثرية من أصحابه، كما وقع ذلك قبيل معركة أحد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159). وقد سئل رسول الله عن العزم فقال: "مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم"⁽⁴⁾، وقوله لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: "لو اجتمعنا في مشورة ما خالفنا"⁽⁵⁾.

فما علينا نحن إلا أن نعيد دراسة تاريخ الأمة النبوية - خصوصاً لأنها منهاج حياتنا، للاستفادة القصوى من علومها ومعارفها وتنظيماتها وثقافتها الغزيرة لإرساء قواعد للإصلاح والبناء الاجتماعيين.

¹ - حركة التغيير الاجتماعي في القرآن: محسن عبد الحميد. ط1/ بغداد. ص 65

² - الإسلام والتنمية الاجتماعية: محسن عبد الحميد، ص 78 - 79.

³ - انظر في ذلك مثلاً: تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن. والحضارة الإسلامية لأدم متز.

⁴ - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، ط1418هـ، 4/152.

⁵ - مسند الإمام أحمد، حديث رقم 17995.

المسار الرابع : الوظيفة الاجتماعية للتنظيمات الاقتصادية النبوية

إن العصر اليوم هو عصر كشف فيه العلم عن كثير من قوانين الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وحصلت لدينا معلومات وافرة تتصل بمجموعة من المعارف الدقيقة، فطبيعة الإسلام الحركية المراعية للتطورات الزمانية والمكانية، تدعونا إلى أن ننتهي في الحكم على الأشياء بعصرنا ولا نقف عند عصور سابقة فحسب، بل علينا أن ندرس كل العصور وظروفها، ناقدين لها مستفيدين من الأخطاء التي وقعت فيها، لتوجيه النظام الاقتصادي وجهة سليمة، تنسجم أكثر مع أصول وقواعد النظام الإسلامي العام.

ومن المعلوم لدى العلماء والدارسين أن المشكلة الاقتصادية في تاريخ الإنسان منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم تشكل جانبا من أهم جوانب الحياة الاجتماعية، إن لم نقل أهمها وأخطرها في التأثير المباشر على سلوك الاجتماع البشري وتصرفاته، لذلك عمل الإسلام على توجيه نظر الإنسان إلى معضلة هذه المشكلة، ووضع لحلها أسسا واقعية تشكل الخطوط الرئيسية لنظامه الاقتصادي المتشابك مع أنظمتها الأخرى المتكاملة التي تنظم الحياة الإنسانية تنظيما دقيقا تقوده إلى الأمن والسلام والسعادة كما أشرت في المسارات السابقة.

والدارس والمطلع على التنظيمات الاقتصادية (المالية) في العهد النبوي يجده بناء محكما دقيقا، ينسق الطاقات وينمي الجهود الجماعية.

فبعد الهجرة إلى المدينة، كان الوحي ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ضابطا للمعاملات المالية بين المسلمين، ومنظما لمواردهم الاقتصادية المالية من خلال وضع ركائز النظام المالي الإسلامي تتجلى في ثلاثة أوجه وهي:

1- موارد بيت المال: الزكاة، والغنيمة، والفيء، والجزية، والعشور، والثروات الطبيعية.

2- قواعد المعاملات.

3- الرقابة على السلوك من خلال نظام الحسبة.

ولقد كان من صلاحيات الوالي أو العامل في عصر النبوة أن يقوم بجمع الزكاة والجزية من الرعايا الذين يقطنون في منطقة حكمه⁽¹⁾.

وأحيانا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرسل ساعيا يختص بالنواحي المالية ليقوم بجمع مستحقات الدولة من الأموال، ويدفعها إلى بيت مال المسلمين⁽²⁾، وقد أطلق عليه اسم: المستوفي⁽³⁾.

¹ - عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: "إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم طاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليكم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم...." انظر البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن.

² - عن بريدة قال: "بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا إلى خالد لقبض الخمس...." انظر البخاري باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن.

³ - انظر: التراتيب الإدارية للكتاني، ج1/410.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفوض أحيانا أحد العمال أن يتسلم الأموال ممن يليه من عمال الأقاليم، كما كان يعين عمالا لجمع الزكاة⁽¹⁾.

وكان- عليه الصلاة والسلام - يشرف على إنفاق هذه الأموال في أوجهها الشرعية⁽²⁾ التي حددتها الآية: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: 60).

كما كان يشرف على إدارة أوقاف المسلمين المالية: فحين طلب منه أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه أن يضع حديقته (ببرحاء) حيث أراه الله، قال له . عليه الصلاة والسلام .: "أرى أن تجعلها في الأقربين"⁽³⁾. وفي غزوة أحد أوصى مُخبريق الذي كان من علماء يهود بني النضير بأمواله للرسول صلى الله عليه وسلم إن قُتل، فقبلها النبي صلى الله عليه وسلم⁽⁴⁾.

أما كتابات مستحقات بيت المال: فقد كلف الرسول صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام وجُهيم بن الصلت وحذيفة بن اليمان بكتابة أموال الصدقات التي تجبي إلى خزينة المسلمين⁽⁵⁾. ولقد اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا بضبط وتنظيم المعاملات المالية؛ فوضع قواعد مفصلة تحكم تبادل السلع في الأسواق منها:

- ما يوفر للمتابعين المعلومات عن حقيقة السلع ودرجة جودتها⁽⁶⁾.
- ما يعين الناس على قياس الكميات والنقود بوضع المكايل والأوزان⁽⁷⁾.
- ما يبين دور النقود في ضبط وتسير المعاملات التجارية⁽⁸⁾.

¹ - انظر: سيرة ابن هشام ، ج 4/ 271 ، والإصابة لابن حجر: ، ج 2/ 489.

² - عن علي أن فاطمة عليها السلام اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحنه ، فبلغها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبي، فأتته تسألها خادما فلم توافقه، فذكرت لعائشة، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك عائشة له، فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم، فقال: "على مكانكما حتى وجدت برد قدمه على صدري، فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتماه؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعاً وثلاثين، واحمدا ثلاثا ثلاثين، وسبحا ثلاثا وثلاثين، فإن ذلك خير مما سألتماه". انظر البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسكين وإيثار أهل الصفة والأرامل..

³ - أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون.

⁴ - الطبقات لابن سعد: ، ج 1 ، ص 501

⁵ - الإصابة لابن حجر، ج 1 ، ص 255.

⁶ - عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع المنابذة، وهي طرح الرجل ثوبه بالبيع إلى الرجل قبل أن يقلبه أو ينظر إليه. ونهى عن الملامسة، واللامسة: لمس الثوب لا ينظر إليه. البخاري: الجامع الصحيح، كتاب البيوع، حديث رقم 2037.

⁷ - عن ابن عباس قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة والناس يسلفون في الثمر العام والعامين فقال: "من سلف في تمر، فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم". البخاري: كتاب السلم، باب السلم في وزن معلوم. حديث رقم 2124

⁸ - عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خير، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكل تمر خير هكذا؟ فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لناخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تفعل، بع الجمع بالدرهم، ثم ابتع بالدرهم جنيبا" البخاري، كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع التمر بتمر خير منه. حديث رقم 2089

وكانت النقود في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نقودا معدنية، وهي الدنانير الرومية والدرهم الفارسية. وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى قياسها بالوزن بدلا من العدد؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " (لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها غائبا بناجز)⁽¹⁾"

وفي هذا حكمة بالغة؛ لأن التلاعب في وزن النقود المعدنية كان يلجأ إليه بعض الأفراد والدول، مما يجعل الوزن هو العامل الحاسم في قيمة النقود⁽²⁾.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون السلف في كيل معلوم ووزن معلوم، إذ لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وجدهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين؛ أي يدفعون الثمن حالا ويؤجلون استلام السلعة مقابلة كيل غير معلوم، فنهاهم عن ذلك، ووجههم إلى ضبط الكيل والوزن، وتحديد الأجل، فقال . عليه الصلاة والسلام: "من أسلف في شيء: ففي كيل معلوم، ووزن معلوم إلى أجل معلوم"⁽³⁾.

وقد شجع النبي صلى الله عليه وسلم المعاملات النقدية والصرف بدل المقايضة . وهي التبادل المباشر بين السلع . ويرجع ذلك إلى أن قيمة المنتجات لا تجد مقياسها الحقيقي المبني على العدل إلا في الأسعار النقدية، بوصفها معيارا لتفسير التغيرات في أثمان السلع والخدمات، وباعتبارها وحدة القياس المشتركة لتقييم جميع السلع، بينما واجه الإنسان في المقايضة مشكلة اختيار السلعة القابلة لأن تكون وسيطا للمبادلة ومقبولة من الجميع، وتكون مقياسا للسلع الأخرى، بسبب تعدد الأطراف وتعدد السلع.

وفي هذا الصدد يروى أن أبا هريرة رضي الله عنه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خبير، فجاءه بتمر جنيب⁽⁴⁾، فقال: "أكل تمر خبير هكذا؟" قال: لا والله يا رسول الله، إنا لناخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال: "لا تفعل، بع الجميع بالدرهم، ثم ابتع بالدرهم جنيباً"⁽⁵⁾.

ويوضح حديث آخر دور المصارفة وتبادل النقود بعضها ببعض من أجل تنظيم التجارة وتيسيرها؛ حيث إن القصد من ذلك إتمام عمليات التبادل السلعي، وهي الوظيفة الرئيسية التي جعلت من أجلها النقود، وبالتالي فإن تبادل العملة (الدينار والدرهم) بسعر يومها قبل أن يفترق البائعان سييسل عمليات المبادلات التجارية.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: "أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيت حفصة، قلت: يا رسول الله! رويدك أسألك، إني أبيع بالبقيع، فأبيع بالدنانير وأخذ الدرهم، وأبيع بالدرهم وأخذ الدنانير،

¹ - أخرجه مسلم في الجامع الصحيح، كتاب المساقاة، باب الربا. حديث رقم 1584

² - النظم المالية في الإسلام معبد علي الجارحي، ج 2، ص 22.

³ - البخاري في الجامع الصحيح، سبق تخريجه

⁴ - (الجنيب من جِيد التمر). غريب الحديث لابن الجوزي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1/1985، باب الجيم مع النون، ج 1/175

⁵ - أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه. سبق تخريجه

أخذ هذه من هذه وأعطي هذه من هذه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا بأس أن تأخذ بسعر يومها، ما لم تفترقا وبينكما شيء"⁽¹⁾.

ولأن تطبيق قواعد العمل في الأسواق تحتاج إلى توجيه ورقابة واعية مستمرة؛ فقد أنشأ النبي صلى الله عليه وسلم وظيفة الحسبة للإشراف على الأسواق، ومراقبة الموازين والمكاييل، ومحاربة الغش في البيوع، والمحافظة على الآداب العامة.

فقد نُظِمَ أمر السوق على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وحضي أمر الإشراف عليها باهتمام كبير، وقام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الوظيفة بنفسه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على صبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللا فقال: "ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: "أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش ليس مني"⁽²⁾.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يشترون الطعام من الركبان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث إليهم من يمنعوهم أن يبيعوه حيث اشتروه حتى ينقلوه إلى المكان المخصص لبيع الطعام"⁽³⁾. وفي حديث آخر: كان الذين يبيعون الطعام مجازفة⁽⁴⁾ يؤدبون في أن يبيعوه في مكانهم حتى يؤووه إلى رحالهم⁽⁵⁾.

ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن تلقي السلع قبل أن تجيء إلى السوق⁽⁶⁾: لما في ذلك من تغرير بالبائع الذي لا يعرف السعر⁽⁷⁾.

ونهى كذلك أن يبيع حاضر لباد⁽⁸⁾، أي لا يكون له سمسارا كما فسره ابن عباس رضي الله عنه، وقصده من ذلك منع الغبن بين البائع والمشتري، وحتى يعلم البائع بالسعر الحقيقي، وهو ثمن المثل، ويعلم المشتري بالسلعة⁽⁹⁾.

¹ - أخرجه أبو داود في السنن، كتاب البيوع، رقم 3354.

² - أخرجه مسلم في الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب (من غشنا فليس منا). حديث رقم 295

³ - مسلم: كتاب البيوع، باب بطلان بيع المبيع قبل القبض. حديث رقم 3918

⁴ - المجازفة: هي الحدس والتقدير بلا كيل أو وزن (البخاري، باب: إذا قاص أو جازفه في الدين). أو المساهلة وعدم التدقيق في الكيل أو الوزن (البخاري، باب: الصلح بين الغرماء).

⁵ - عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من ابتاع طعاما فلا يبعه حتى يستوفيه". رواه مسلم: كتاب البيوع، باب بطلان بيع المبيع قبل القبض. حديث رقم 3913

⁶ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا تلقوا السلع حتى يهبط بها إلى السوق." البخاري: كتاب البيوع، باب النهي عن تلقي الركبان.

⁷ - الحسبة لابن تيمية، ص32.

⁸ - عن أبي هريرة قال: نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التلقي، وأن يبيع حاضر لباد. البخاري: كتاب البيوع، باب النهي عن تلقي الركبان.

⁹ - الطرق الحكيمة لابن القيم، ص283.

وقد شملت الحسبة في العهد المدني معاملات كثيرة غير هذه، ومجالات متنوعة للعمل على مراقبة وتصويب الأقوال والأفعال والمقاصد والسلوك العام للإنسان المسلم، في البيع والشراء والحرفة والصناعة والبناء والنقل واستخدام المرافق العامة، وهي خصائص جعلتها تكتسب صفة "نظام".

أما الملكية العامة للثروات الطبيعية: كالعيون، والأنهار، والبحار، والكأ البري، والغابات، والمعادن؛ فهي في الأصل ملك للأمة كما جاء في الحديث الشريف: ثلاثة لا يمنعن: الماء، والكأ، والنار"⁽¹⁾، وكلها تؤول إلى الدولة لتنظيم استغلالها.

وضمامنا للمصالح العامة، حتى الرسول صلى الله عليه وسلم جهة البقيع بالمدينة، ومساحتها ميل في ستة أميال. أي ستة أميال مربعة. لخييل المسلمين من المهاجرين والأنصار"⁽²⁾.

وأشار. عليه الصلاة والسلام. في وثيقة إقطاع همدان بعض مخاليف اليمن إلى المراعي، فلم يعطهم أي حق في استغلال المراعي العامة استغلالاً خاصاً كاستغلالهم للإقطاع الممنوح لهم؛ حيث جاء في تلك الوثيقة: "لا يأكلون علافها ويرعون عافياً"⁽³⁾.

ولما استقطع الأبييض بن حمال المأربي الرسول صلى الله عليه وسلم ملح مأرب وأقطعه إياه، قال الأقرع بن حابس التميمي للرسول صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أتدري ما أقطعت له؟ إنما أقطعت له الماء العد"⁽⁴⁾؛ إني وردت هذا الملح في الجاهلية، وهو بأرض ليس فيها غيره، من ورده أخذه، وهو مثل الماء العد في الأرض. وحينئذ استقال الرسول صلى الله عليه وسلم الأبييض في قطيعة الملح، فقال الأبييض: قد أقلتك على أن تجعله مني صدقة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "هو منك صدقة، وهو مثل الماء العدي، من ورده أخذه"⁽⁵⁾.

ولا شك أن تدخل الدولة في مراقبة وتسيير الثروات العامة يؤدي إلى إرساء نظم التوزيع الاجتماعية العادلة، فتتحصل مجموعة من المنافع الاجتماعية التي ستنمي الحياة والمجتمع، وتنهض بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي، كتحقيق توزيع عادل للدخل والثروة، وتكافؤ الفرص بين المسلمين، وتشغيل أمثل للموارد الاقتصادية ومحاربة الاحتكار والغش والغبن والريح الفاحش، وتشجيع المنافسة بين المنتجين، وغيرها من المصالح العامة الاجتماعية.

وخلاصة الأمر: إن هذه التنظيمات الاقتصادية الإسلامية التي وضعها رسولنا العظيم فريدة لا مثيل لها، لأن أصولها وفروعها تتحرك داخل نظام واحد وهو النظام الإسلامي العام الذي ينظم شؤون الحياة كلها على أساس من الفطرة والواقعية والعبودية الكاملة لرب العالمين.

¹ - رواه ابن ماجه في كتاب الرهون. حديث رقم 2473

² - معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج 5، ص 301.

³ - الروض الأنف للسيبلي، ج 7، ص 425.

⁴ - أي الدائم الذي لا ينقطع، ذكره ابن منظور في اللسان: ج 2، ص 703.

⁵ - أخرجه ابن ماجه في السنن رقم 2475. وذكره الماوردي في الأحكام السلطانية، ص 247

والفرد المسلم إذا تربى في المجتمع على مزاوله الاقتصاد الحلال لا على الاقتصاد الحرام، يزدهر على يديه المجتمع، وتكفي الموارد، لأن الحاجات عندئذ لا تعتبر عن ضغط الغرائز الحيوانية، وإنما تظهر منسجمة مع الهدف الحقيقي لوجود الإنسان الخليفة في إطار النظام الإلهي العام في الوجود المتمثل بالإسلام الذي يتفرع منه النظام الاقتصادي الإسلامي المتوازن⁽¹⁾.

وإذا طبقنا هذا النظام الاقتصادي الإسلامي المتميز سيؤدي إلى طريق التنمية في المجتمع الإنساني، فهو ليس طريقاً آلياً يبغى الربح وحده أو الكفاية الاقتصادية وحدها، وإنما هو طريق إنتاج أخلاقي إنساني يفي بحاجة الإنسان، وشيء من كمالياته.

يقول الاقتصادي الفرنسي (جاك أوستري): "إن طريق الإنماء الاقتصادي ليس محصوراً في المذهبين المعروفين الرأسمالي والاشتراكي، بل هناك مذهب اقتصادي ثالث راجح هو المذهب الاقتصادي الإسلامي... إن هذا المذهب سيسود عالم المستقبل لأنه أسلوب كامل للحياة"⁽²⁾.

المسار الخامس: وظيفة التنظيمات الحربية النبوية في تحصين المكتسبات الاجتماعية

الإسلام من حيث كونه ديناً يعالج واقع الحياة، أقرب إلى اللجوء إلى القوة أحياناً ضرورة لتحقيق الحق وإبطال الباطل والدفاع عن العدل ورد الظلم.

فكما أن الفرد إذا قتل فرداً آخر دون حق، يجب أن يُقتص منه، حتى لا يتجرأ غيره على العدوان، فيتحول المجتمع الإنساني تدريجياً إلى مجتمع الغاب الذي يفعل كل حيوان فيه ما تسوقه إليه غريزته. كذلك، إذا كان الاعتداء من جماعة على جماعة أو أمة على أمة، فردها ضرورة لنشر السلام ودفع العدوان عن أمم العالم. هذا القانون الاجتماعي يقرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 251]

وإذا كان دفع العدوان بالقوة والحرب في الإسلام لغاية إنسانية واضحة ولتحقيق مصلحة اجتماعية راجحة، فإن الحرب في الإسلام ليست مقصودة لذاتها، ولذلك لم يبدأ المسلمون الحرب قط وإنما اضطروا إليها اضطراً.

لذلك، فإن القرآن الكريم أنكر أول اعتداء من ولد آدم على أخيه ومن أجل ذلك كتب الله تعالى على بني إسرائيل أنه ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: 32)

إذن فصيانة أرواح الناس مطلوبة وأمن المجتمع الإنساني مطلوب والحفاظ على السلام بين البشر ضرورة من ضرورات احترام آدمية الإنسان وتكريمه.

¹ - الإسلام و التنمية الاجتماعية: محسن عبد الحميد ص 106.

² - نقلا عن: النظام الاقتصادي في الإسلام: مبادئه وأهدافه: لأحمد محمد العسال وفتحي أحمد عبد الكريم ، ط2 مطبعة الاستقامة الكبرى 1977م ، ص 14/13.

فهذا مبدأ واضح يتلخص في أن الأصل في العلاقات بين الأفراد والجماعات، ليس حرباً، بل هو تعاون وتعارف على الخير وتحقيق المغزى الإنساني لوجود الإنسان المكرم على الأرض، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. (الحجرات: 13).

وبناء على ذلك، فإن القرآن الكريم فرض على المجتمع الإسلامي كله عدم الاعتداء، وأباح لهم رده إن وقع عليهم. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: 190).

ولقد بين القرآن الكريم المبدأ العام الذي يقاتل في سبيله المسلمون في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۗ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، (النساء: 76).

ولذلك كان التنظيم معلماً بارزاً في أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم الحربية، بحيث كان عند خروجه لأي غزوة يرتب الجيش ترتيباً متوازناً، حيث يجعل في كل مجنبة كفوّاً لها⁽¹⁾، وكان يعقد له الألوية والرايات⁽²⁾، لما تمثله هذه الألوية والرايات من رمز القوة، فثبات الراية يعني القوة والانتصار، كما أن سقوطها يعني الهزيمة والاندحار.

فكان لكل عشيرة أو رهط راية أو لواء، أو راية ولواء، أو راية وألوية⁽³⁾. وكان يحمل كل راية أو أكثر زعيم أو عدة زعماء، حسب عدد الرايات⁽⁴⁾. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشاور أفراد العشيرة فيمن يحمل رايتهم⁽⁵⁾.

وكان عليه الصلاة والسلام يجعل لأصحابه شعاراً في الحرب يُعرفون به إذا تكلموا مثل: (أمت . . أمت) و(حم لا ينصرون)⁽⁷⁾ وكان ينهى عن النهب بقوله صلى الله عليه وسلم: من انتهب نهبه فليس منا⁽⁸⁾، ومن أخلاقه صلى الله عليه وسلم النهي عن النهبة والمثلة⁽⁹⁾.

¹ - زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم: ج3 ص97.

² - عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: كان علي تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر، وكان به رمد. فقال: أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج علي فلحق بالنبي، فلما كان مساء الليلة التي فتحها في صباحها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأعطين الراية". أو قال: "ليأخذن غدا. رجل يحبه الله ورسوله، يفتح الله عليه" فإذا نحن بعلي وما نرجوه. فقالوا: هذا علي، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتح عليه. انظر البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في لواء النبي صلى الله عليه وسلم.

³ - انظر: ابن سعد في الطبقات، ج3، ص169.

⁴ - الإصابة لابن حجر: ج1، ص424.

⁵ - نفسه: ج1، ص303، ج3، ص531.

⁶ - أخرجه أبو داود في السنن رقم 2593.

⁷ - الترمذي في السنن، كتاب الجهاد، بسند حسن، رقم 1733.

⁸ - أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، رقم 3935.

⁹ - البخاري، باب (ما يكره من المثلة والمصبورة)، حديث رقم 5197.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا ظفر بعدوه أمر مناديا فجمع الغنائم كلها، فبدأ بالأسلاب فأعطاهما لأهلها، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه الله عز وجل من مصالح المسلمين، ثم يرضخ من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد، ثم يقسم الباقي بالتسوية بين الجيش، للفارس ثلاثة أسهم، سهم له وسهمان لفرسه، وللراجل سهم⁽¹⁾.

وقد عرف الجيش الإسلامي في العهد المدني الرتب العسكرية: القائد العام. وهو الرسول صلى الله عليه وسلم. وأمراء التعبئة⁽²⁾، والنقباء⁽³⁾، والعرفاء⁽⁴⁾، ثم الجنود.

وقد كان المستوى القتالي للمسلمين فيها ضعيفا، فشجع النبي صلى الله عليه وسلم على تطوير كفاءتهم القتالية، وبلغ اهتمامه بتدريبهم على الرمي إلى حد أنه جعله أساس القوة وجوهرها، فعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ»⁽⁵⁾.

وكان عليه الصلاة والسلام، يُحذِر من الانقطاع عن التدريب على الرمي حتى لا ينخفض المستوى القتالي للمسلمين، إلى حد أنه اعتبر ذلك من المعاصي وجحود النعمة، فقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ عَلِمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا أَوْ قَدْ عَصَى"⁽⁶⁾، وأن عمر بن الخطاب، كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح: أَنْ عَلِّمُوا، مُقَاتِلَتِكُمُ الرَّمِيَّ، وَعَلِّمُوا غِلْمَانَكُمْ الْعَوْمَ⁽⁷⁾.

وقد برع المسلمون في الرماية نتيجة لهذه العناية الفائقة حتى استحقوا أن يُطلق على بعضهم (رماة الحدق) أي أن الرامي منهم كان إذا صَوَّب سهمه نحو عين عدوه لم يخطئها⁽⁸⁾.

فقد خلفت لنا هذه التنظيمات بكافة أشكالها في المرحلة المدنية جملة من المبادئ المهمة، والقواعد الكلية، والضوابط، التي يمكن من خلالها تأسيس مدارس إسلامية في مختلف التنظيمات، ذات خصائص مستقلة، تقوم على منهج عقدي له طبيعته ومميزاته وشموليته التي تحقق تفوقه على نظائره من مدارس التنظيم الغربية المعاصرة، على أن ما يتميز به النظام الإسلامي من مرونة وقدرة على الاستجابة السريعة، والملائمة لكل ما قد يحدث من متغيرات في مجال الأساليب والوسائل والأدوات، وما أتيح له من اجتهاد

1- (للفارس ثلاثة أسهم، سهم له، وسهمان لفرسه) سنن الترمذي. باب (في سهم الخيل). حديث رقم 1554.

2- سيرة ابن هشام: ج4، ص25. 26.

3- في مسند الامام أحمد، حديث رقم 15798. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم"، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً منهم: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس).

4- البخاري، باب (إذا وهب جماعة لقوم)، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم للجيش في شأن هوازن: "إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَدْنَىٰ مِنْكُمْ فِيهِ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّىٰ يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرْفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ. فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرْفَاؤُهُمْ. ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ طَبَّيُوا وَأَذَنُوا". حديث رقم 2466.

5- أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه. حديث رقم 5055.

6- أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، حديث رقم 5058.

7- انظر: سنن سعيد بن منصور الخراساني (ت: 227). حديث رقم 2455.

8- إدارة الرسول صلى الله عليه وسلم للصراع في شبه الجزيرة: محمد جمال الدين محفوظ، ص103.

واتصال بين الفكر والتطبيق، يجعل المسلمين قادرين على التصدي للتحديات الحضارية التي تواجههم في كل عصر ومصر.

وخلص القول:

يعتبر التنظيم الاجتماعي النبوي حتى بالمعايير المعاصرة أساساً للنجاح والجودة، نتيجة شفافية هذا الإصلاح الاجتماعي وأخلاقه، والتي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أدق تعبير حين قال: "إن الله عز وجل يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"⁽¹⁾.

¹ - المعجم الأوسط - الطبراني، دار الحرمين - القاهرة/1415، ج1/275، حديث رقم 897